الإمامة والولاية

في القرآن الكريم

التأليف

مجموعة مؤلفيين

الناشر

دار القرآن الكريم

تاريخ النشر

٢٧ رجب ١٤١٢هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تحيّرت العقول في كُنْه معرفته، وانحسرت الأبصار دون التطلّع إلى غيب ملكوته، وكَلّت عين بيان نعوته تعابير اللغات، وضلّت هنالك تصاريف الصفات. فسبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين، الذين استخلفهم وعلّمهم الأسماء كلها، فصيّرهم شهداء على الناس أجمعين.

صلى الله عليهم، ولا سيّما على شهيد الشهداء وشفيع الشفعاء محمد خاتم النبيين. وأهل بيته الذين طهّرهم من الدنس، وأذهب عنهم الرجس، وجعل مودّتهم السبيل إليه تعالى، واللعن على أعدائهم ومنكري فضائلهم إلى يوم الدين.

أما بعد، فهذه الرسالة مشكاة فيها مصباح الخلافة الإلهية، والمصباح في زجاجة من الحجج القرآنية، فكأنها كوكب دُرّي يوقد من شجرة مباركة لا شرقية ولا غربية.

إنها تبحث حول الكمال الأقصى للإنسان، والذي يتجلّى في خلافته الحقيقية وولايته الخاصة بالمقرّبين من أوليائه.

ومما لا ريب فيه أنّ الولاية الإلهية من المقامات السامية الرفيعة الصعبة الفهم إلا على من حباه الله بنور نافذ وبصيرة واعية.

ولعلها من أجلى مصاديق (الحديث الصعب المستصعب)[1] الذي أشير إليه في روايات كثيرة.

وقد قمنا بهذا البحث المختصر حول إثبات أصل الولاية ـ دون تفصيلها وحقيقتها ـ معتمدين على الكتاب الكريم والسنة الشريفة، وذلك تبياناً للحق، ودفعاً لشبهات بعض مدّعي العلم والتحقيق، المفتونين بما كتبه بعض الفرق الضالة المقلدة لسلفها دون وعي.. وقد رأينا بعض هؤلاء المفتونين يصرّح بإنكار الولاية رغم الدلائل الساطعة، ومن ثم راح يطعن على حفّاظ الشريعة من المحدّثين وفقهائنا المكرمين.

---

(١) وقد أفرد أمام المحدثين ثقة الإسلام الكليني له باباً في الكافي وكذا العلاّمة المجلسي في بحار الأنوار. ومن هذه الروايات ما رواه في الكافي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ حديث آل محمد صعب مستصعب لا يتحمله إلا نبي مرسل أو ملك مقرب أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان.

ولعمر الحق أنّ الحق لواضح بيّن، ولن يستطيع نفر لم توافقه ميولهم وأهواؤهم أن يطمسوه {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ}[1]. أعاذنا الله من نزغات الشيطان الرجيم.

وقد تناولنا في هذه الرسالة أربع عشرة آية من كتاب الله الكريم بالتفسير، وذيّلنا كل آية بذكر نموذج مما ورد من الروايات بشأنها، وذكرنا في الخاتمة خلاصة ما استفدنا من الآيات الكريمة والروايات الشريفة. وجعلنا مسك الختام بحثاً موجزاً في العلم بالغيب وفي عصمة الأنبياء والأئمة عليهم الصلاة والسلام.

نسأل الله تعالى أن يوفّقنا للاهتداء بهديهم والسير على خطاهم.

وهو المستعان.

المؤلفون

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٧٢.

١ ـ آية الخلافة

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}[١]

الخليفة

أما الخليفة فهو من يقوم مقام الغير. ولم تستعمل هذه اللفظة بصيغة المفرد في القرآن الكريم إلا في موردين: أولهما هذا المورد، والثاني قوله تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ}[٢].

ولكنها استعملت بصيغة الجمع في موارد: منها قوله تعالى:

{هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئفَ في الأَرْضِ}[٣].

وقوله تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم}[٤]

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئفَ}[٥]

وقوله تعالى: {وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ}[٦]

وقوله تعالى: {وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ}[٧]

وقوله تعالى: {أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ}[٨].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٩ ـ ٣٠.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٦٥.

(٤) سورة يونس، الآية: ١٤.

(٥) سورة يونس الآية: ٧٣.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ٦٩.

(٧) سورة الأعراف، الآية:٧٤.

(٨) سورة النمل، الآية: ٦٢.

المراد من الخلافة

لعل المراد منها في كثير من الآيات هو الحلول محل الغابرين في الحياة الدنيوية والقيام مقامهم، وهو ما تؤكده القرائن الحافّة بالآيات.

إلا أنّ المراد بالخلافة في الآيتين اللتين ذكر فيهما اللفظ بصيغة المفرد هو القيام مقام الخالق والجاعل ـ جل وعلا ـ أي أنّ المراد منها هو (الخلافة الإلهية).

وذلك لأمرين:

الأول: إنّ إطلاق لفظ(خليفة) من غير إضافة وإشارة إلى المخلوف مما يؤكد أن الإنسان خليفة لمن جعله كذلك. وهذا نظير ما لو قال رئيس الدولة مثلاً(إني جاعل في الدولة خليفة)، إذ يكون المفهوم العرفي له كون هذا خليفة لرئيس الدولة نفسه.

الثاني: إنّ الحوار الذي جرى بين الملائكة وبين الله تعالى إذ تساءلوا عن معنى جعل خليفة يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فأجابهم تعالى بأنه يعلم مالا يعلمون، والامتحان الذي تمّ وكشف عن صلاحية الإنسان لتعلّم الأسماء، كل هذا ليكشف لنا بوضوح عن أنّ الخلافة المركّز عليها هنا ليست إلا الخلافة الإلهية.

وإذا كان هذا الأمر الثاني جارياً في الآية التي نبحث عنها بالخصوص، فإن الأمر الأول جارٍ في الآيتين معاً.

ومما يؤكد الخلافة هنا إلهية أنّ الله عرّف ذلك المخلوق للملائكة قبل أن يخلقه بأنه(الخليفة)، فلو كان المقصود هو من يخلف غيره في الحياة الدنيوية لم يكن يصلح أن يعّرف بذلك.

هذا، وإنّ وجود عبارة (فاحكم بين الناس بالحق) تفريعاً على جعل الخلافة لداود في الآية الثانية، ينسجم مع هذا المعنى دون مسألة القيام مقام الآخرين.

سر الخلافة الإلهية وملاكها

إنّ الخلافة تعني: كون الخليفة معبّراً عن المستخلف في ما استخلف فيه. ومن هنا فإن الخلافة المطلقة تقتضي كونها شاملة لمختلف الشؤون وكافة الأمور من جهة، واستيعابها لكل ما استخلف عليه الخليفة من جهة أخرى.

ولهذا كان من اللازم أن يكون الخليفة المطلق عالماً بصفات المستخلف وشؤون ما يستخلف عليه. كما يجب أن تكون له القدرة الضرورية للتصرف فيه.

وهكذا فالخلافة المطلقة الإلهية تتوقف على معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العليا حتى يمكن للخليفة أن يعبّر عنها، كما تتوقف أيضاً على معرفة عامة المخلوقات؛ لكي يتمكن من تدبيرها وأداء حق الاستخلاف فيها.

ولذلك نجد أنّ الله تعالى علّم آدم الأسماء كلها علماً يغنيه عن ذلك ويحقق ملاك إعطاء الخلافة الإلهية. ولم يكن ذلك التعليم بالألفاظ ومداليلها الذهنية، وإنما كان بالحقائق ومصاديقها الخارجية العينية.

ويدلّ على ذلك الحوار الذي جرى مع الملائكة، حيث إنهم تصوّروا أنفسهم لائقين لمقام الخلافة الإلهية؛ لقيامهم بالتسبيح والتقديس، فتساءلوا عن الحكمة في جعل خليفة في الأرض، إلا أنهم اعترفوا بقصورهم عن احتلال هذا المقام حينما علّم الله آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة، فقالوا معترفين بالعجز: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

ولهذا يمكن أن نؤكّد أنّ ما حصل لهم علمه بالأنباء والأخبار لم يكن على حد علم آدم كما يشعر به، بل يدلّ عليه اختلاف التعبير، حيث عبّر بالنسبة لآدم بـ(علم) وبالنسبة للملائكة بـ(أنبأهم).

ويؤيّد هذا الذي ذكرناه أنّ الآية مطلقة لم تُقيّد الخلافة بما يستخلف فيه ولا بمن يستخلف عليه. ولا ريب في أنّ مَنْ كان له ذلك المقام المطلق لابدّ له من العلم بالأسماء والصفات علماً يمكنه ـ معه ـ أن يتصرف في ما استخلف فيه كما هو ظاهر.

وخلاصة الأمر

إنّ الخلافة الإلهية تدور مدار العلم الشهودي ـ لا الكسبي الحصولي ـ بالأسماء كلها، علماً يتلقّاه الخليفة من الله تعالى بغير واسطة، وهذا هو سر الخلافة ومناطها.

الأسماء

الاسم هو ما يعرف به الشيء. ولكن ما المراد به في هذه الآية؟ وهل المراد هو أسماء الله أي الألفاظ؟ أو مفاهيمها الذهنية؟ أو الأعيان الخارجية التي تحكي عنه سبحانه؟ أو أنّ المراد هو أسماء المخلوقات؟

أما كون المراد بها الألفاظ ـ سواء كانت ألفاظاً حاكية عن الله سبحانه أو عن مخلوقاته ـ فلا ينسجم مع ضرورة أنّ اللغات لم تكن قد وضعت آنذاك. والمفاهيم الذهنية غير قابلة للنقل والإنباء. فيتعيّن الاحتمال الثالث. وحينئذ فيكون المراد من الأسماء التي أنبأهم بها آدم أسماء تلك الأسماء العينية الحسنى، كما يساعد عليه تعبير الأنباء في قوله تعالى: {أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء}[1] وقوله تعالى: {أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ}[2].

ومن المحتمل أن تكون هذه الأسماء هي أسماء الله من جهة وأسماء لما سواه من جهة أخرى. فإن هؤلاء يتّصفون تارة بأنهم مظاهر لصفاته العليا، وأخرى خُزّان كمالات المخلوقات على وجه أتم وأعلى.. ولعل مما يؤيد هذا الاحتمال، الإطلاق الموجود في لفظ(الأسماء).

وبهذا الوجه من الجمع يمكننا أن نجمع بين الروايات الدالّة على أنها أسماء الأشياء كالجبال والأودية وبين ما يدلّ على أنّ المعروض على الملائكة هي أنوار المعصومين وأرواحهم عليهم السلام، وقد ورد أنهم الأسماء الحسنى[3]

هل تختص الخلافة بآدم (ع)؟

لا ريب في أنّ الخلافة المجعولة في الآية ليست مختصّة بشخص آدم عليه السلام فإن الملائكة قالوا: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء}[4]، وهذا المعنى لا يتصور إلا مع وجود كثرة في الأفراد وحياة اجتماعية معيّنة. أضف إلى ذلك أنّ الله تعالى لم يرد عليهم بنفي وقوع القتل والإفساد، بل قال {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}[5] مشيراً إلى رفعة مقام الخليفة.

كما أنه لا ريب في أنّ مثل هذا المقام الأسمى لا يعطى لكل الأفراد فعلاً؛ لأن المفسد السافك للدماء لا يليق له ولا يناسبه، وعليه فتكون الخلافة مجعولة لآدم كنوع لا كشخص، وذلك بمعنى أنه يوجد في النوع الإنساني من يحمل صلاحية الوصول إلى هذا المقام الجليل.

فالإنسان خليفة الله تعالى في أرضه بما أنّ له العلم بالأسماء الحسنى.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٣.

(٣) الكافي: ج١، ص ١٤٣، الحديث ٤: عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل﴿لله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ قال: نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلا بمعرفتنا.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(٥) سورة البقرة، الآية:٣٠.

والذي يبدو مما سبق كله أنّ ذلك الإنسان الخليفة هو الغاية القصوى من خلق الإنسان وإيجاد هذا النوع في كل زمان.

وهناك روايات تشير إلى ما استفدناه من الآيات نذكر بعضها في ما يلي:

روى الصدوق بسندين عن الصادق عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى علّم آدم عليه السلام أسماء حجج الله كلها ثم عرضهم ـ وهم أرواح ـ على الملائكة فقال {أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}[1] بأنكم أحقّ بالخلافة في الأرض لتسبيحكم وتقديسكم من آدم عليه السلام. {قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}[2].

قال الله تبارك وتعالى {يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ}[3] وقفوا على عظيم منزلتهم عند الله ـ تعالى ذكره ـ فعلموا أنهم أحق بأن يكونوا خلفاء الله في أرضه وحججه على بريّته، ثم غيّبهم عن أبصارهم واستعبدهم بولايتهم ومحبّتهم وقال لهم {أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ}[4].

وفي تفسر العياشي عن أبي العباس، عن أبي عبد الله عليه السلام سألته عن قول الله {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا}[5] ماذا علّمه؟ قال: الأرضين والجبال والشعاب والأودية، ثم نظر إلى بساط تحته فقال: وهذا البساط مما علّمه[6].

وفيه عن داود بن سرحان العطار قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فدعا بالخوان فتغدّينا ثم جاؤوا بالطست والدست سنانه، فقال: جعلت فداك، قوله {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا}[7] الطست والدست سنانه منه؟ فقال: والفجاج والأودية. وأهوى بيده: كذا وكذا[8].

---

(١) سورة البقرة،الآية: ٣١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٣.

(٤) كمال الدين: ج١، ص ١٤.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٣١.

(٦) تفسير العياشي: ج١، ص ٣٢، تفسير البرهان: ج١ ص ٧٥، البحار: ج٥ ص ٥٧ و ٣٩.

(٧) سورة البقرة، الآية: ٣١.

(٨) تفسير العياشي: ج ١ ص ٣٣: تفسير البرهان ج ١، ص ٧٥، البحار: ج ٥ ص ٣٩.

٢ـ آية الإمامة

{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}[١].

الابتلاء

(الابتلاء والبلاء هما بمعنى واحد، يقال: بلوته وابتليته بكذا أي أوقعته في أمر ليظهر ما يخفى من صفاته). وهو غالباً لتعرف ما يجهل من أمره. ويقرُب منه الاختبار والامتحان والفتنة، ولكن يبدو أن التعرّف من غايات الابتلاء وليس جزءاً من معناه، بحيث إذا جرّد عنه كان الاستعمال مجازياً.

(وعلى أي حال فإن ابتلاء الله تعالى لم يكن لأجل التعرّف على حال المبتلى وإنما هو لإظهار حاله وإبراز ما كمن في نفسه، وفعلية ما يستعد له من السعادة والشقاء) وهي غاية الخلقة نفسها حيث قال تعالى {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}[٢] وقال تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}[٣]

وقال تعالى {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}[٤].

الكلمات

الكلمة ما يُتكلّم به. فتطلق على اللفظ المفرد والجملة وعلى محكيهما. وقد استعملت في القرآن الكريم في الحاكي كما في قوله تعالى: {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ}[٥] وفي المحكي كما في قوله تعالى: {مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ}[٦] وقد أطلقت على بعض الموجودات الخارجية بغض النظر عن كونها مدلولة لألفاظ معيّنة كما في قوله تعالى: {وَكَلِمَتُهُ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٢) سورة الملك، الآية: ٢.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٧.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

(٥) سورة الكهف، الآية:٥.

(٦) سورة ابراهيم، الآية: ٢٤.

أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ}[1] وربما كان ذلك باعتبار أنّ الوجود الإمكاني ليس إلا كلمة (كن) الإيجادية إذ قال الله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}[2] كما يحتمل أن تسمية الموجودات الخارجية بذلك باعتبار أنها تعرب عن الله تعالى كإعراب اللفظ عن المعنى.

الإمام

وهو من يؤتمّ ويقتدى به، يقال: أمّ القوم إذا تقدّمهم. وكأنه مأخوذ من الأمام ـ بالفتح ـ بمعنى القُدّام. فالأصل في معناه(ما هو أمامك)، ولذا يستعمل بمعنى الطريق كما في قوله تعالى: {وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ}[3] كما أنّ القرآن الكريم أطلقه على الكتاب التكويني في قوله تعالى: {وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ}[4] والكتاب التشريعي كقوله تعالى: {وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً}[5] وأطلقه على قائد القوم ومقتداهم سواء في طريق الهدى كقوله تعالى: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا}[6]، أو طريق الضَلال كقوله تعالى: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ}[7].

بماذا ابتلى ابراهيم (ع)؟

إنّ المراد بالكلمات التي ابتلى بها إبراهيم عليه السالم إما أن تكون هي الأوامر الصادرة من الله تعالى والحاوية لتكاليف هامّة، أو يكون المراد متعلّقات تلك التكاليف باعتبار كونها محكيّة لكلامه تعالى تارة أو بما أنها أمور كائنة بكلمة الإيجاد تارةً أخرى.

أما إتمامهنّ فالمقصود به الإتيان بهنّ على الوجه الأتم، فكأنّ تلك الكلمات كانت حوادث ناقصة قام ابراهيم بإتمامهن من خلال العمل بها. وبهذا يكون الضمير الفاعلي في {أَتَمَّهُنَّ}

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٧٩.

(٤) سورة يس، الآية: ١٢.

(٥) سورة الاحقاف. الآية: ١٢.

(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.

(٧) سورة القصص، الآية: ٤١.

راجعاً إلى ابراهيم، ويحتمل رجوعه إلى (ربّه) وحينئذ يكون المراد بالإتمام، الامتحان أو التوفيق للعمل بموردها.

إلاّ أنّ الأظهر أنّ المراد بـ(كلمات) هو نفس البلايا التي ابتلى بها مدى حياته كالإلقاء في النار، والاضطرار للهجرة، والأمر بتضحية الولد، والعهود التي أخذت منه للصبر عليها. يقول تعالى في قصة ذبح اسماعيل {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ}[1].

أما حقيقة الإتمام فهي الصبر على البلية، والعمل بما يرضى الرب تبارك وتعالى فيها. قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا}[2].

وعلى أي حال، فإن ما نعرفه من خلال ما مرّ هو أنّ الابتلاء كان عملية تأهيل لمقام الإمامة السامي، وأنّ العمل بما يلزم في البلية كان شرطاً ضرورياً للفوز بهذه الكرامة العظمى.

إمامة إبراهيم(ع)

وهكذا نال إبراهيم تلك الحظوة الكبرى بعد أن قدّم امتحانه الرائع الذي أثبت أهليّته عليه السلام لها، وكان الصبر على تحمّل الامتحان مقدمة للصبر على تحمّل أعباء الإمامة.

ولكن ما المراد بالإمامة هنا؟

وهل هو مقام تشريعي دون مقام النبوة؟ أو فوق مقام النبوة؟ أو أنّ المراد به هو النبوة لا غير؟ أو أنه مقام تكويني من مراتب القرب إلى الله تعالى كالصلاح والإخلاص وما أشبه؟ أو أنه مقام تكويني يتعلق بتكميل النفوس وإيصالها إلى الغايات ـ أي أنه يشكّل واسطة للفيض والعطاء الإلهي؟

وإذا ركّزنا على عبارة {جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ} عرفنا أنّ هذا المقام لم يكن مقاماً نفسياً محضاً في مجال العلاقة بين العبد وربّه بلا أي ارتباط بالناس، سواء كان الارتباط تشريعياً بأن يؤمر الناس بإتّباعه والاقتداء به، أو تكوينياً بأن يكون هذا الإمام وسيلة لتكميل نفوسهم.

---

(١) سورة الصافات، الآية: 106.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٢٤.

متى تمّ منحه مقام الإمامة؟

ما يبدو من هذه الآية أنه عليه السلام منح هذا المقام بنفس هذا الخطاب الإلهي بقوله تعالى: {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا}[1] أو بعده. ذلك أنّا عرفنا أنّ منحه ذلك كان نتيجة لابتلائه وامتحانه، فلا يعقل منحه المقام قبل الامتحان. ويؤيّد ذلك أنّ اسم الفاعل(وهو هنا(جاعل)) لا يعمل في المفعول(وهو هنا(إماماً)) إلا إذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال ـ كما قيل.

ومن الواضح أنّ علميات الامتحان بهذه الكلمات تمّت في زمن نبوّته ورسالته؛ لأنه عليه السلام أعلن دعوته الحنيفية ورفع لواء التوحيد وهو شاب يافع، إذ يقول تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا.. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا}[2]، ويقول تعالى: {قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ}[3]، وهكذا نجد إشارات حقيقة البعثة المُبكّرة في باقي الآيات التي تتحدث عن بعض أطوار حياته.

كما أنّ الظاهر هو وجود ذرية له عند سؤاله الذي ذكرته هذه الآية بقوله: {وَمِن ذُرِّيَّتِي} أو علمه بحصول ذرية له ـ على الأقل ـ وإلا لكان مقتضى الأدب العبودي أن يُقيّد سؤاله بأن يقول مثلاً(ومن ذريتي إنْ رُزِقت) فإذا لاحظنا هذا ولاحظنا أيضاً أنّ القرآن الكريم يحكي على لسانه قوله {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ}[4]، ورأينا أنه عَلم بأنه سيُرزق ولداً بوحي من الله وبشارة جاءت بها الملائكة الذين دخلوا عليه في طريقهم إلى قوم لوط لإهلاكهم، حيث تعجّب من هذه البشارة! فقال {أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ}[5]، وكانت هذه البشارة بعد رسالته وإيمان لوط له، إذ قال تعالى: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي}[6]، وقال تعالى: {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ}[7]، إذا لاحظنا كل هذا بدقّة حصل لنا الاطمئنان بأن الإمامة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٢) سورة مريم، الآية: ٤٣.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٦٠.

(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٣٩.

(٥) سورة الحجر، الآية: ٥٤.

(٦) سورة العنكبوت، الآية: ٢٦.

(٧) سورة الصافات، الآية: ١٠١.

قد أُعطيت له بعد أن كان نبياً رسولاً، وبذلك لا يمكن قبول ادّعاء أنّ مقام الإمامة هو النبوة لا غير، وهذا المعنى تؤكده روايات كثيرة وتدلّ عليه بصراحة.

وإذ كانت الإمامة مقاماً منح بعد كون إبراهيم نبياً رسولاً فإن ذلك يكشف عن كونها مقاماً أرفع من النبوة والرسالة، ومما يؤكد ذلك توقّفها على إتمام الكلمات والصبر على البليّات.

فلا يبقى لدينا إلا احتمالان:

(الاحتمال الأول): أن تكون الإمامة مقاماً تشريعياً فوق النبوة، وأثرها وجوب الإتباع المطلق في جميع أقواله وأفعاله. ذلك أنّ النبوة والرسالة لا تتطلّبان في ذاتهما الاقتداء بالنبي الرسول في جميع الحركات والأعمال، وغاية ما تفرضانه هي الطاعة والاستماع لِما يُبلّغ للناس من دعوة ورسالة. اللهم إلا أن يأتي دليل آخر هو غير الدليل الدال على النبوة أو الرسالة فيدلّ على وجوب الإتّباع العملي، وذلك مثل قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ}[1]، وقوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}[2].

(الاحتمال الثاني): أن تكون الإمامة مقاماً تكوينياً يشكّل فيه الإمام واسطة لإيصال عطاء الهداية الحقيقية لمن هو أهل لها، إضافة للهداية التشريعية التي يستوي فيها المؤمن والكافر. ومن الممكن دخولهما معاً في ما جعل بهذه الآية بشكل ترتّبي طولي.

ما يؤيد الاحتمال الثاني

والذي يؤيّد الاحتمال الثاني أنّ هذه الإمامة لها خصيصة يخبرنا عنها القرآن الكريم بقوله تعالى: في سورة الأنبياء: {أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا}[3].

وليست هذه الهداية مجرد إراءة للطريق وإيضاح للهدف؛ لإتمام الحجة على الخلق كما هو شأن النبي المنذر، بل هي أمر فوق النبوة ومقتضياتها.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.

ومن هنا نفهم أنها تعني الإيصال إلى المطلوب الذي يُنسب إلى الله حقيقة، والى الوسائط باعتبارهم وسائل غير مستقلة والتي إنما تؤثر بأمر الله، كما أنّ الملائكة تعمل بأمره تعالى حيث يقول سبحانه {وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ}[1].

وعلى هذا، فالمراد بالهداية الخاصة بالإمام هي الهداية التكوينية، والمراد بالإمامة إما نفس هذا المقام التكويني السامي أو أنها أمر تشريعي يبتني عليه.

وبتعبير آخر: فإن مقام الإمامة مقام ظاهره التشريع وباطنه التكوين، بمعنى أن ظاهر هذه الآية الشريفة هو إثبات مقام تشريعي للإمام يستلزم أن يكون قوله وفعله وتقريره حجة مطلقاً على الخلق، وباطنها هو إثبات مقام تكويني للإمام. ومن خواص هذا المقام التكويني جريان الهداية الإلهية على يديه. ولا يوجد أي تناف بين المعنيين: التشريعي والتكويني؛ لأنهما مترتّبان طوليان، أي أحدهما يراد بعد الآخر، وهذا هو الشأن في بطون الآيات.

وهنا يجب التنبيه على أن إعطاء وصف الإمام مطلقاً للشخص يعني كون المتّصف هو القدوة والأسوة في جميع الأمور التشريعية مما يتعلق بسعادة الإنسان ومسيرته الكمالية، من غير اختصاص بشأن دون شأن. ومع هذا الإطلاق في الوصف لا نحتاج لدليل يثبت لنا حجية جميع أقواله وأفعاله.

قوله تعالى: {وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}[2]

بملاحظة الموارد المختلفة التي تتحدّث عن حالات ابراهيم عليه السلام، نجد أنه كان مثال الاعتناء بأمر ذريته وصلاحها ومصيرها الحسن، فهو يستوهب الله ذرية صالحة {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ}[3]، ويسأل الله ذرية مسلمة لله في دعائه المشترك مع ولده إسماعيل عند بناء بيت التوحيد الكعبة الشريفة {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ}[4]، ويطلب منه تعالى أن يبعده وبنيه عن عبادة الأصنام، {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ}[5].

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٣) سورة الصافات، الآية: ١٠٠.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.

(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٣٥.

وها نحن نراه لا يترك فرصة تلقّيه بشارة جعله إماماً حتى يتساءل عن إعطائها لذريته، فيجاب بأنه {لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالمينَ}[1]، حيث تدلّ على أنّ عهد الله تعالى الذي يدخل فيه عهد الإمامة لا ينال الظالم، وهذه سُنّة إلهية كبرى ثابتة.

والملاحظة أنّ الجواب إما جاء ردّاً على بعض ما سأل، أو تعييناً لما أهمل، أو تنبيهاً له على ما أغفل. ولعل الأوسط هو الأنسب.

وقد تمسّك الشيعة ـ تبعاً لأئمتهم عليهم السلام منذ العهد الأول ـ بهذه الآية الشريفة لإثبات عصمة الإمام، إذ هي صريحة في عدم أهلية الظالم لهذا المقام السامي. ولا ريب في أنّ من أظهر مصاديق الظلم الشرك بالله وعبادة غيره، حيث قال تعالى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}[2] وأنّ اطلاق(الظالمين) شامل لكل ظلم سواء كان على الغير أو على النفس، وكل معصية صغيرة أو كبيرة ظلم لا يصلح مرتكبه لهذا المقام الشامخ.

هذا، وقد ذكر أعلام الشيعة وجوهاً لتقريب وتوضيح دلالة الآية على لزوم أن يكون الإمام معصوماً قبل أن يناله عهد الإمامة. وفي ما يلي بعض هذه الوجوه:

(الوجه الأول): إنّ ابراهيم عليه السلام سأل الله تعالى أن يمنح هذا المقام الرفيع لبعض ذريته، فاستجاب الله تعالى في بعض من سأل لهم هذا المقام.

ولا ريب في أنّ ابراهيم ـ ومَنْ هو في جلالة قدره ـ لا يطلب الإمامة لمن يستوعب الظلم كل حياته، كما أنه لا يطلبها لمن ينحرف، فهو عليه السلام إذاً كان يطلب الإمامة لمن لا يدخل في هذين الفرضين وهم: إما رجل لا يظلم طول حياته، أو آخر تلبّس بالظلم حيناً ثم تاب عنه. وهنا جاءت هذه الآية الشريفة لتنفي صلاحية الفرد الثاني الذي صدر منه الظلم للإمامة العظمى.

(الوجه الثاني): إنّ قانون {لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالمينَ} جاء جواباً على سؤال إبراهيم الإمامة لبعض ذريته، ليؤكّد أنّ دعاء إبراهيم لن يستجاب في الظالمين منهم.

ومن الواضح أنه يتحدث عن المستقبل، وأنّ اطلاق وصف (الظالم) إنما هو بملاحظة حال تلبّسه وقيامه بالظلم، أما حين صدور هذا الخطاب لإبراهيم فليس ملحوظاً قطعاً. وإنّ تعبير النيل وإسناده الفاعلي إلى العهد يشير إلى أنّ هذا العهد أمر ينزل من الله تعالى فيجري فيمن كان قابلاً

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٣.

لا تّصافه بالإمامة، والمرتكب للظلم في بعض حالات حياته كان قد انطبق عليه عنوان (الظلم) عند ارتكابه، ففقد بذلك صلاحية ارتفاعه لمقام الإمامة المنيع، فلا يناله ذلك العهد النازل من الله.

(الوجه الثالث): إنّ المراد بالظالم في هذه الآية بملاحظة مناسبات المقام هو ظلم في آنٍ ما من حياته[1] فإن من الملاحظ بوضوح في مجال منح المناصب وخصوصاً الهامّة المصيرية منها ـ حتى ولو كانت مناصب دنيوية ـ أن لا يكون التركيز مقصوراً على حالة الشخص حينما يراد إعطاؤه هذا المنصب، وإنما تدرس حياته الماضية وسوابقه السلوكية، فإن ماضيه يؤثر على حاضره بلا ريب. والظلم ولو في لحظة حياتية يمنع الإنسان من أن يكون مؤهّلاً لمنصب هو من أخطر المناصب على الاطلاق، وهو منصب الإمامة؛ لأنه يعني تسلّم مصير الأمة كلها.

وهناك وجه آخر للزوم العصمة قبل نيل الإمامة، وحاصله:

إنّ الآية الكريمة أعطت سُنّة إلهية في مجال إعطاء العهود والمناصب الإلهية، وهي تؤكد أنّ هذه العهود لن تعطى إلا لمن له رادع داخلي على الظلم والطغيان، وليست الإمامة سلعة تعطى ثم تسترد عند ظهور عدم صلاحية حاملها وصدور الظلم والطغيان عنه. مَثَلُها في ذلك مثل النبوة فهي إنما تعطى لمن هو مأمون عن الظلم والفساد. ولا يحصل الأمن إلا إذا وجدت ملكة ومبدأ عاصم في النفس، وقوة فائقة في القلب. وهذا المبدأ ليس أمراً جزافياً اتفاقياً، وإنما ينشأ عن بُنية خاصة وشرايط تكوينية مساعدة وصلاحيات تصونه عن الخطأ والانحراف، ولسنا نعني بالعصمة غير هذا.

هذا، وإنّ نسبة العهد إلى الله يؤكد على أنه أمر لا دخل للناس فيه، وإنه تعيين إلهي لا انتخاب ولا اختيار للأمة فيه.

والواقع أننا نحتاج إلى هذه الوجوه عندما نريد إقامة الحجة على من لم يستبصر بعد، ولم تثبت له حجية كلام أهل البيت عليهم السلام.

أما العارف بشأنهم والآخذ من علومهم فهو في غنىً عن إقامة هذه الوجوه، بعد أن وردت روايات كثيرة عنهم عليهم السلام تدلّ على أنّ الآية تبطل إمامة كل من عبد صنماً، وأنه لا

---

(١) وقد يقال: إنّ الاوصاف على قسمين: فقسم منها العالم والعادل لا يكفي حصولها في وقت ما لبقاء صدقها على صاحبها بل يجب استمرارها. وقسم منها ما يكفي أن يحصل مبدؤها الاشتقاقي ولو في آن من الحياة لتبقى وصفاً لصاحبها كالقاتل والوالد وأمثالهما. ووصف الظالم هو من القسم الثاني دون الاول.

يمكن أن يكون السفيه الذي رغب عن ملة إبـراهيم إمـام المتقـين. فراجـع جوامـع الحـديث والتفاسير الروائية. وها نحن نذكر من طريق كل من الفريقين نموذجاً لها:

فعن السُنّة: عن أبي الحسن الفقيه ابن المغازلي الشافعي مسنداً، عن عبد الله بن مسعود قـال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا دعوة إبراهيم. قلت: يا رسول الله وكيـف صـرت دعـوة أبيك إبراهيم؟

قال: أوحى الله عز وجل إلى إبراهيم {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا}[1] فاستخف إبراهيم الفـرح، قال {وَمِن ذُرِّيَّتِي} أئمة مثلي، فأوحى الله عز وجل إليه أن يا إبراهيم، إنّي لا أعطيـك عهـداً لا أفي لك به، قال: يا رب، ما العهد الذي لا تفي به؟ قال: لا أعطيك لظالم من ذريتك عهداً. قـال إبراهيم عندها {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّـنَ النَّـاسِ}[2]. فقـال النبي صلى الله عليه وسلم: فانتهت الدعوة إليّ والى علي، لم يسجد أحدنا لصنم قط، فاتخـذني نبياً واتخذ علياً وصياً.

عن الشيعة: عن الكليني والمفيد والعياشي ـ رحمهم الله ـ مسنداً، عن الصادق عليه الـسلام: إن الله تبارك وتعالى اتخذ ابراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، وإنّ الله اتخذه نبيـاً قبـل أن يتخـذه رسولاً، وأنّ الله اتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، وأن الله اتخذه خليلاً قبـل أن يجعلـه إمامـاً، فلما جمع له الأشياء قال {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا}[3].

قال: فمن عِظَمِها في عين إبراهيم قال {وَمِن ذُرِّيَّتِي}؟ {قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}[4] قال: لا يكون السفيه إمام التقي[5]

ومثله عن الباقر عليه السلام.[6]

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٢) سورة ابراهيم، الآية: ٣٥، ٣٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٥) أصول الكافي: ج١، ص ح٢ و ٤، مرآة العقول: ج٢، ص ٢٨٥و ٢٨٦، غاية المرام نقلاً عن المفيد في أماليـه: ص ٢٧٢، ح ١١، نور الثقلين: ج١، ح ٣٤٢، ص ١٠٢.

(٦) نور الثقلين: ج١، ح ٣٤٣ ص ١٠٢.

ـ٣ـ

آية أولي الأمر

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}[1]

منصبان للرسول(ص)

يركّز القرآن الكريم على وجود منصبين للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم هما:

(الأول): منصب إبلاغ التشريع وما يوحيه الله إليه وأداء رسالة الله وبيان الأحكام والمبادئ الإسلامية في مختلف المجالات.

قال تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ}[2]

(الثاني): منصب القيادة والحكم بين الناس، الذي يتطلّب اتّباع الأمة له في أوامره ونواهيه وتصويب آراءه والتسليم له. قال تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ}.[3]

والقرآن إذ يركّز على وجود هذين المنصبين له(ص) يؤكّد على لزوم طاعة الأمة الإسلامية له في كلا المجالين، فيقول تعالى: {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ}[4] باعتبار أنّ طاعته(ص) هي طاعة الله تعالى في الواقع. أما تكرار(أطيعوا) فليس للتأكيد ـ كما قال به بعض المفسرين ـ وإنما يشعر بلزوم طاعة النبي(ص) في المجال الثاني أيضاً.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٢) سورة النحل، الآية: ٤٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٠٥.

(٤) سورة النساء، الآية: ٥٩.

آيات تؤكد طاعة الرسول(ص)

إنّ هذه الآية الكريمة لتأمر ـ بكل وضوح ـ جميع أهل الإيمان بإطاعة الله تبارك وتعالى في أوامره ونواهيه، وإطاعة الرسول صلى الله عليه وآله وأولي الأمر في مختلف أوامرهم ونـواهيهم مطلقاً. وقد كرّر القرآن الكريم الأمر بإطاعة الله عز وجل مقرونة بإطاعة رسوله(ص) لتوضيح أنّ طاعته(ص) هي طاعة الله تعالى، وأنّ وجوب إطاعتهما هو على نسق واحد، وذلـك فـي آيـات كثيرة مثل:

{وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[1]

{قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}[2]

{وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[3]

{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[4]

{قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}[5].

{أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}[6]

وغير ذلك من الآيات الكريمة.

وإذا كانت إطاعته(ص) قد انفردت في بعض الآيات كما قال تعالى: {أقيموا الـصَّلَاةَ وَآتُـوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[7] فإن ذلك لا يعني افتراقها عن طاعة الله عز وجل، فإن

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٢.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ١.

(٤) سورة المجادلة، الآية: ١٣.

(٥) سورة النور، الآية: ٥٤.

(٦) سورة محمد، الآية: ٣٢.

(٧) سورة النور، الآية: ٥٦.

الآية الكريمة الأخرى تصرّح بالوحدة بينهما، حيث يقول تعالى {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ}[1].

وهكذا نقطع من خلال ملاحظة هذه الآيات أنّ طاعته(ص) هي طاعة الله ومن سنخها.

ولَمّا كانت طاعة الله مطلقاً في أوامره ونواهيه هي طاعة معصوم بالضرورة، كانت طاعة رسول الله(ص) مطلقاً في أوامره ونواهيه الحكومية وبياناته المفسّرة لمجمل الكتاب، طاعة معصوم أيضاً؛ لوجود تلك العينية بين الطاعتين.. وهي حقيقة قرآنية جليّة لا مجال لإنكارها؛ لشدّة وضوحها.

طاعة أولي الأمر

ولَمّا كان (أولو الأمر) قد ذكروا مع الرسول صلى الله عليه وآله فإن الآية الكريمة تدلّ على فرض طاعتهم نظير ما للرسول من إطاعة في مجال الولاية والحكومة، من لزوم قبول رأيهم وطاعة أوامرهم؛ لأنهم ولاة أمر الناس وحكّامهم.

والملاحظة في هذه لآية أنها تؤكّد وحدة إطاعة الرسول(ص) وإطاعة ولي الأمر، إذ جعل الله تعالى لنفسه إطاعة وللرسول(ص) وأولي الأمر إطاعة، فتكون إطاعة أولي الأمر إطاعة للرسول، فهي إذاً إطاعة للمعصوم.

وبذلك تكون واجبة مطلقاً بحكم الالتحام بين طاعتهم وطاعة الرسول (ص) التي تعني طاعة الله تعالى ـ كما مر ـ وبهذا تكون الآية دالّة على عصمة أولي الأمر؛ لاقتران طاعتهم بطاعة الله تعالى.

وتؤيّد هذا المعنى عدة نقاط:

(النقطة الأولى): إنّ الله تعالى أمر بإطاعة أولي الأمر من جهة، ونهى عن اتّباع خطوات الشيطان من جهة أخرى. فإذا افترضنا أنّ ولي الأمر لم يكن معصوماً لزم أن يكون اتّباعه في مورد خطئه اتّباعاً للشيطان، ولا يمكن الأمر بشيء قد نهى عنه؛ لأنه يلزم منه التناقض، كما أنه يتنافى مع الإطلاق في(أَطِيعُوا اللَّهَ).

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٠.

(النقطة الثانية): إنّ الله تعالى أوجب طاعة أولي الأمر على الإطلاق كطاعته وطاعة الرسول، وهذا الإطلاق لا ينسجم إلاّ مع عصمة أولي الأمر؛ لأن غير المعصوم قد يأمر بمعصية فيحرم طاعته في ذلك، وعند ذلك لو قلنا: بأن الإطاعة مازالت واجبة اجتمع الضدّان (الوجوب والحرمة) وهو أمر باطل.

وقد يعترض على هذا فيقال: إنّ الأمر في هذه الآية وإن كان مطلقاً لكنه مقيّد بمثل الآية الشريفة {قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء}[1] وقول الرسول صلى الله عليه وآله (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)، فإذا أمر أولوا الأمر بمعصية حُرم إتّباع أمرهم ولم يشمله وجوب الطاعة، فلا يوجد أي تضاد.

إلا أنّ هذا الادّعاء مما يأباه الذوق، حيث إنّ العارف باللغة يجد تعارضاً بين القولين التاليين:

{مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ}[2]

و(لا تطع الرسول في ما خالف الله) !!

وهذا التنافي الواضح ينشأ من دلالة القول الأول ضمناً على صحة كل ما يأمر به الرسول وموافقته لأمر الله تماماً، هذا لا ينسجم مع دلالة القول الثاني على إمكان مخالفة رسول الله مما يجعله مناقضاً لمضمون القول الأول.

والنتيجة هي: أنّ الآية تنزّل إطاعة الرسول منزلة إطاعة الله {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ}[3] وهذا التنزيل لا يقبل أي تخصيص أو تقييد بلا ريب. ولَمّا كانت إطاعة أولي الأمر تشترك مع إطاعة الرسول في السياق وتتساوى معها في الإطلاق، فهي لا تقبل تقييداً كذلك.

(النقطة الثالثة): لا معنى مطلقاً لأن نتصوّر الآية تأمر بإطاعة أولي الأمر في خصوص ما عدا المعاصي، فإن ذلك لا ينسجم أبداً مع ما هو الظاهر منها من كونها تركّز على تعظيم الرسول وأولي الأمر وجعلهما في مستوى واحد من اللزوم. فإن تعظيم العاصي ـ لا سيّما المنغمس بأنواع الفواحش ـ قبيح.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ٨٠.

هذا بالإضافة إلى أنّ جوب الطاعة لمن يأمر بالطاعات ليس من خواص الرسول وأولي الأمر، بل تجب طاعة كل آمر بالمعروف وناهٍ عن المنكر، فلماذا لم يذكر هؤلاء هنا وخصّ الأمر بهم دون غيرهم؟

كل هذا يؤكّد أنّ المستفاد من الآية هو عصمة الرسول وأولي الأمر وأنهم لا يأمرون ولا ينهون إلا بالحق.

وبعد هذا فلا مجال لأن يقال بأن (عدم جواز طاعة المخلوق في معصية الخالق) أمر عقلي مسلّم يرتكز في ذهن العقلاء، فهو يشكّل قرينة عقلية متّصلة بالكلام تمنع من إطلاق قوله تعالى: {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}[1] وتجعله دالّاً على لزوم إطاعة الرسول وأولي الأمر في غير المعاصي.

كما لا مجال للقول: بأن ذكر أولي الأمر وتخصيصهم إنما هو لمصلحة اجتماعية، هي حفظ وحدة المجتمع وصيانته من اختلاف الكلمة، رغم أنه من المحتمل أن يخطأوا؛ لأن هذه المصلحة تعوّض وتسدّ نقص الأخطاء.

فكل هذا توهّم باطل طبق ما مر.

والواقع أنّ القرآن الكريم وأسلوبه في التعبير لا يساعد على هذه التمحلات، فإن القرآن يلتزم بالتقييد في ما هو أهون من ذلك بكثير وأوضح، كما في قوله تعالى: عند التعرّض لبرّ الوالدين {وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا}[2].

هذا، وقد اعترف إمام المشككين الفخر الرازي بدلالة الآية على عصمة الرسول وأولي الأمر، فقال في المسألة الثالثة في ذيل الآية:

إعلم أنّ قوله {وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}[3] يدلّ عندنا على أنّ اجماع الأمة حجة، والدليل على ذلك أنّ الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية، ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لا بد وأن يكون معصوماً عن الخطأ، إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله بمتابعته، فيكون ذلك أمراً بفعل ذلك الخطأ، والخطأ

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٢) سورة العنكبوت،الآية: ٨.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٩.

لكونه خطأ نهي عنه. فهذا يقتضي اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد باعتبار واحد، وأنه محال، فثبت أنّ الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم، وثبت أنّ كل مَنْ أمر الله بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ، فثبت أنّ أولي الأمر المذكور في الآية لابد وأن يكون معصوماً.

وقال في موضع آخر:

.. فكان حمل الآية على الإجماع أولى؛ لأنه أدخل الرسول وأولي الأمر في لفظ واحد، وهو قوله {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ} فكان حمل أولي الأمر الذي هو مقرون الرسول على المعصوم أولى من حمله على العاجز والفاسق ـ الخ.

وصححه النيشابوري والشيخ محمد عبده ـ على ما حكاه مقرر بحثه في المنار بقوله: فأهل الحل والعقد من المؤمنين إذا أجمعوا على أمر من مصالح الأمة ـ إلى أن قال ـ فطاعتهم واجبة، ويصحّ أن يقال هم المعصومون في هذا الإجماع. وإن أضاف اليه المقرر ما يوهم خلافه، فراجع.

من هم أولو الأمر؟

الأمر قد يكون بمعنى الشأن، وقد يراد به المعنى المقابل للنهي، وعلى أي فعمناه واضح عرفاً.

وأولو الأمر طائفة من الأمة يتملكون شأناً هامّاً هو (ولاية أمرها) والإشراف على تسيير دفّة الحكم فيها، ولهم أن يأمروا بما يرون فيه مصلحة الأمة وسيرها الطبيعي.

ولا ريب في دلالة الآية الكريمة على وجودهم في الأمة، وإلاّ لكان الأمر بإطاعتهم لغواً. ولكن من هم هؤلاء؟ وهل كان أحدهم موجوداً على عهد رسول الله (ص)؟ وهل كان هذا ـ لو وجد ـ يتقلّد منصباً ويتولّى شأناً من الشؤون، أو كان على الأقل مؤهّلاً لتولّي هذا الشأن؟

هذه أسئلة لا تجيب عليها الآية الشريفة، ولذا كان اللازم الرجوع إلى من أسلمت له مهمة بيان الكتاب وتفصيل مجمله، وذلك كما في أمثال هذا المورد من عدد الصلوات وركعاتها ومناسك الحج وغيرها.

ثم إنّ (أولي الأمر) اسم جمع يدلّ على كثرة المسمّين به، إلا أنه لا مانع من أن يراد به آحاد يتقلّدون الأمر واحداً بعد الآخر.

ولهذا الاستعمال نظائر في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: {فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ}[1] وقوله تعالى: {وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ}[2] وقوله تعالى: {إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا}[3] وأمثال ذلك.

والمقصود به أنّ الاستعمال على نحو القضية الحقيقية ـ كما يعبّر المناطقة ـ أي على نحو إصدار حكم على موضوع معيّن مفروض، فمتى ما تحقق ذلك الموضوع في الخارج تحقق الحكم. وهنا يقال: إنه متى ما تحقق ولي الأمر ووجد خارجاً تجب طاعته. وليس هذا المعنى خلافاً للظاهر من التعبير القرآني.

ومن هنا نعرف فساد ما توهّمه الفخر الرازي من أنّ أولي الأمر جمع فلابد من أرادة جماعة، أي أرادة هيئة مكوّنة من أفراد مجتمعة، أما إرادة فرد واحد منها فهو خلاف الظاهر.

نعم، إذا استعمل لفظ الجمع في المفرد لا غير ـ على نحو القضية الشخصية ـ فهو خلاف الظاهر بلا ريب، وليس الأمر هنا كذلك.

أما تعبير(منكم) في الآية الكريمة فهو نظير تعبير(منهم) في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ}[4]. ولعل ذكر هذين التعبيرين لأجل توضيح حقيقة وجوب طاعتهم رغم أنهم (منكم)، وذلك باعتبار وجود مزّية لهم على الآخرين.

فليس بسديد ما قيل من أنّ تعبير(منكم) إنما جاء للتنبيه على أنهم أناس عاديون مثلكم بلا أي مزيّة كالعصمة وشبهها.

هل المراد بهم أهل الحل والعقد؟

بعد أن اعترف الرازي بلزوم عصمة أولي الأمر، واستظهر من لفظ الجمع أنّ المقصود هم جماعة، فسّر أولي الأمر بأنهم أهل الحل والعقد من العلماء، وبنى عليه حجية الاجماع، معبّراً عنه بإجماع الأمة تارة، وإجماع أهل الحل والعقد أخرى.

إلاّ أنّ هذا الرأي تكتنفه تساؤلات كثيرة وثغرات تجعله رأياً هزيلاً باطلاً.

---

(١) سورة القلم، الآية: ٨.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٥١.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٦٧.

(٤) سورة الجمعة، الآية: ٢.

إذ يتساءل قبل كل شيء عن المقصود بهذا التفسير، وهل أنّ المراد هو عصمة كل فرد فرد من أهل الحل والعقد؟ وهو واضح البطلان ولا يدّعيه أحد. أو أنّ المراد هو عصمة هذه الجماعة بما هي جماعة بلا أن يتصف الأفراد بالعصمة؟ فهذا أيضاً باطل لا معنى له، فإن تصوّرهم كجماعة مستقلة عن أفرادها أمر اعتباري ذهني محض، وهذا الأمر الاعتباري الذهني لا يقبل أن يتصف بصفة حقيقية خارجية هي العصمة!! إنّ الهيئة المُشَكَّلَة منهم لا يمكن أن تتصف بالعصمة مع افتراض عدم عصمة هؤلاء الأفراد.

وقد يُدّعى بهذا الصدد: أنّ أهل الحل والعقد إذا اجتمعوا على أمر كان اجتماعهم ملازماً للصواب والحق عادة، وذلك نظير إخبار جماعة كثيرة عن حادثة، حيث يلازم ذلك صحة الخبر إذا بلغ أخبارهم حد التواتر.

إلا أنه غير تام، فإنه:

أولاً: لو فرض وجود هذا التلازم فهو لا يختص بهذه الأمة.

وثانياً: فإنه لا ملازمة بين اجتماع طائفة من الناس على شيء ومطابقة ذلك الشيء للواقع الخارجي، فكم من أمر اجتمع عليه أهل الحل والعقد وبان خطؤه بعد حين.

وقد يُدّعى: أن عصمة هؤلاء بتأييد إلهي وعناية منه تعالى. ولكن هذا الادّعاء باطل أيضاً بالضرورة، فما أكثر الهيئات الاجتماعية الإسلامية التي لم تعصم من الخطأ والزلل في قراراتها المجمع عليها مما جرّ على المسلمين أحياناً مآسي ومفاسد كبرى.

والحقيقة هي أنه لو كانت هذه الكرامة لأهل الحل والعقد من الأمة المسلمة واقعاً، لكان من المنطقي أن نشاهد تأكيد القرآن الكريم عليها واهتمام النبي صلى الله عليه وآله ببيانها، ولدارت حولها أسئلة كثيرة من قِبَل المسلمين محاولة استيضاح حدودها وشرائطها وتفصيلاتها والموقف من ملابساتها المتوقعة.. ونحن نرى أنّ المسلمين تساءلوا عن كثير من الأمور التي هي أقل خطراً منها، بل لا تقاس قيمتها إلى هذه الكرامة المُدّعاة..

إلا أننا نجد أنّ كل ذلك لم يحدث مطلقاً، وبقي هذا النظام الذي ادُّعيت له هذه الكرامة نظاماً غامضاً يفتقد أي صورة محددة له ولو اجمالاً، مما يؤكد لنا بوضوح أنّ هذا الادعاء ما هو إلا مجرد خرافة، وإنّ الإسلام لا يمكنه أن يضع مثل هذا النظام وبهذا الشكل من الغموض والإبهام.

فكل هذه الاحتمالات باطلة لا أساس لها، ويتعيّن بالتالي ما قالت به الإمامية: من أنّ المراد هم أفراد معصومون من هذه الأمة منزّهون في أفعالهم وأقوالهم عن الخطأ والزلل، مما يفرض على الأمة طاعتهم واتّباع منهجهم والانضواء تحت لوائهم.

أما معرفة من هم هؤلاء فهي موكولة إلى الله ورسوله، وقد عيّنتهم آيات مثل آية التطهير وآية الولاية {إنما وليكم الله ورسوله..}[1] كما شخّصتهم أحاديث جمّة مثل حديث الثقلين وحديث الغدير.

ما يرجع به إلى أولي الأمر

ولأجل تعيين الأمور التي يرجع بها إلى أولي الأمر نقول:

إنّ الآية وأن عبّرت بأنه {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّه وَالرَّسُولِ}[2] وكلمة (شيء) تعمّ بظاهرها كل ما تنازعت الأمة واختلفت فيه، سواء كان حكماً من الأحكام التشريعية الكلية، أو كان من القضايا والمنازعات التي تحتاج في حلّها إلى الترافع والتحاكم، إلا أنّ الآية لَمّا ذكرت الردّ إلى الله والرسول بالخصوص بلا ذكر لأولي الأمر فإنها أوضحت أنّ المراد من الشيء المتنازع فيه هو تلك الأحكام الكلية التي يمتلك الرسول فيها حيثية التبليغ، وإلا فالموضوعات كما يمكن ردّها إلى الرسول بما له من الرأي يمكن ردّها أيضاً إلى أولي الأمر بما لهم ذلك.

ومن الممكن أن نقول: إنّ عدم ذكر أولي الأمر مرّة ثانية كان للاختصار والوضوح، فكان ذكر الله والرسول من باب التمثيل لمن يرجع اليه في الاحكام والمواضيع المتنازع فيها لا من باب الحصر.

ولذا لا نحتاج إلى أن نقيّد الاطلاق في كلمة(شيء) بخصوص الاحكام الكلية.

ويؤيّد ذلك قوله تعالى: {وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ}[3] فإنه لم يذكر لفظ الجلالة مع الرسول وأولي الأمر هنا، وليس ذلك للاختصار والوضوح والتمثيل للمرجع بذكر الرسول وأولي

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٣) سورة النساء، الآية: ٨٣.

الأمر، إلا أنّ يقال: إنّ هذه الأمور العادية ليست مما يرجع فيها إلى الله لمعرفتها، وهذه هي النكتة في عدم ذكر لفظ الجلالة في هذه الآية.

الروايات تعيّن أولي الأمر

وقد جاءت الروايات الكثيرة التي تؤيد ما قالت به الإمامية من تفسير للآية، وذلك عن طريق الفريقين: السنة والشيعة.

(فمن طريق السنة) ما عن تفسير المجاهد، أنّ هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام حين خلّفه رسول الله صلى الله عليه وآله بالمدينة فقال: يا رسول الله، أتخلّفني على النساء والصبيان؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى حين قال {اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ}[1] فقال الله {وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}[2] قال: علي بن أبي طالب، ولاّه الله أمر الأمة بعد محمد صلى الله عليه وآله، وحين خلّفه رسول الله صلى الله عليه وآله فأمر الله العباد بطاعته وترك خلافه[3]

(ومنها) ما عن الحمويني ـ وهو من أعيان علماء العامة ـ في حديث: قال (يعني أمير المؤمنين عليه السلام): أنشدكم الله، أتعلمون حيث نزلت {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}[4] وحيث نزلت {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ}[5] وحيث نزلت {لَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً}[6] قال الناس: يا رسول الله أخاصة في بعض المؤمنين أم عامة لجميعهم؟ فأمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وآله أن يعلمهم ولاة أمرهم وأن يفسر لهم من الولاية ما فسر لهم من صلاتهم وزكاتهم وحجّهم، ونصّبني للناس بغدير خم ـ إلى أن قال ـ ثم خطب فقال: أيها الناس، أتعلمون أنّ الله عز وجل مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولي بهم من أنفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: قم يا علي، فقمت ، فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. فقام سلمان فقال: يا رسول الله، ولاء ماذا؟ فقال: ولاء كولائي، من كنت أولى به

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٣) غاية المرام : ص ٢٦٣، ب ٥٨، ح١.

(٤) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(٦) سورة التوبة، الآية: ١٦.

من نفسه فعلي أولى به من نفسه. فأنزل الله تعالى ذكره {لَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً}[1] فكبّر رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: الله أكبر، تمام نبوتي وتمام دين الله ولاية علي بعدي.

فقام أبو بكر وعمر فقالا: يا رسول الله، هذه الآيات خاصة في علي؟

قال: بلى، فيه وفي أوصيائي إلى يوم القيامة: قالا: يا رسول الله، بيّنهم لنا.

قال: علي أخي ووزيري ووارثي ووصيي وخليفتي في أمتي وولي كل مؤمن من بعدي، ثم ابني الحسن، ثم ابني الحسين، ثم تسعة من ولد ابني الحسين واحداً بعد واحد، القرآن معهم وهم مع القرآن، لا يفارقونه ولا يفارقهم حتى يردوا عليّ الحوض. فقالوا: اللهم نعم، قد سمعنا ذلك وشهدنا كما قلت[2].

وعن الشيعة روايات متواترة:

(منها) صحيحة أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله الله عز وجل {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ} فقال: نزلت في علي بن أبي طالب والحسن والحسين. فقلت له: إنّ الناس يقولون: فما له لم يسمّ علياً وأهل بيته في كتاب الله عز وجل.

قال: فقولوا لهم: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نزلت عليه الصلاة لم يسمّ الله لهم ثلاثاً ولا أربعاً، حتى كان رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي فسّر لهم ذلك، ونزلت عليه الزكاة ولم يسمّ لهم من كل أربعين درهماً حتى كان رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي فسّر لهم ذلك، ونزل الحج فلم يقل لهم: طوفوا اسبوعاً، حتى كان رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي فسّر ذلك لهم، ونزلت {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ} ونزلت في علي والحسن والحسين، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: من كنت مولاه فعلي مولاه. وقال: أوصيكم بكتاب الله وأهل بيتي، فإني سألت الله عز وجل أن لا يفرق بينهما حتى يوردهما عليّ الحوض، فأعطاني ذلك. وقال: لا تعلموهم، فإنهم أعلم منكم. وقال: إنهم لن يخرجوكم من باب هدى،

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٦.

(٢) غاية المرام: ص ٢٦٤، ب ٥٨، ح٤.

ولن يدخلوكم في باب ضلالة. فلو سكت رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يبيّن مَنْ أهل بيته لادّعاها آل فلان وآل فلان ـ الحديث[1].

(ومنها) عن جابر بن يزيد الجعفي قال: سمعت جابر بن عبد الله الانصاري أنه سأل رسول الله عليه وآله: فمن أولو الأمر الذين قرنا الله طاعتهم بطاعتك؟ فقال: هم خلفائي يا جابر، وأئمة المسلمين من بعدي، أولهم علي بن ابي طالب، ثم الحسن، ثم الحسين ثم علي بن الحسين، ثم محمد بن علي المعروف في التوراة بالباقر، ستدركه يا جابر فإذا لقيته فاقرأه منّي السلام، ثم الصادق جعفر بن محمد، ثم موسى بن جعفر، ثم علي بن موسى، ثم محمد بن علي، ثم علي بن محمد، ثم الحسن بن علي، ثم سميي وكنيي حجة الله في أرضه وبقيته في عباده ابن الحسن بن علي. ذاك الذي يفتح الله ـ تعالى ذكره ـ على يديه مشارق الأرض ومغاربها، ذاك الذي يغيب عن شيعته وأوليائه غيبة لا يثبت فيها على القول بإمامته إلا مَنْ امتحن الله قلبه للإيمان.

قال جابر: فقلت له: يا رسول الله، فهل يقع لشيعته الانتفاع به في غيبته؟ فقال: أي والذي بعثني بالنبوة، إنهم يستضيئون بنوره وينتفعون بولائه في غيبته كانتفاع الناس بالشمس وإن تجلاّها سحاب. يا جابر، هذا مكنون سرّ الله ومخزون علمه، فاكتمه إلا عن أهله.[2]

(١) غاية المرام: ص ٢٦٥، ح٣.

(٢) غاية المرام: ص ٢٦٧، ح١٠.

ـ ٤ ـ

آية الولاية

{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ}[1]

الولاية

الأصل في معنى (الولاية) على ما يظهر من تتبع موارد الاستعمال وكلمات اللغويين هو القرب والدنو، ويلازمه الاتصال والتأثير، وقد يقارنه التصرف والتدبير، والمحبة والنصرة إلى غير ذلك.

قال في أساس البلاغة: وليه ولياً: دنا منه، أوليته: أدنيته، وفي القاموس الولي: القرب والدنو، والوليّ: اسم منه، والمحب، والصديق، والنصير. قال الراغب: الولاء والتوالي أن يحصل شيئان فصاعداً ليس بينهما ما ليس منهما. ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد.

والذي يساعد عليه الاعتبار، أنّ مادة الكلمة وضعت أول مرّة للقرب الحسّي الخاص، ثم توسّع فيها فاستعملت في ما يشابهه من المعاني المعقولة. فإن الألفاظ إنما وضعت تدريجاً لمسيس الحاجة إلى التفاهم حول ما يعرف الإنسان. ولا ريب أنّ معرفة الإنسان بالأمور المحسوسة إنما حصلت قبل معرفته بالمعقولات. والقرب في غير المحسوسات قد يكون حقيقياً كقرب العلة من المعلول، وقد يكون اعتبارياً اعتبر لترتيب آثاره على ما هو الشأن في المفاهيم الاعتبارية.

فالقرب قد يلاحظ بين فردين مشتركين في أسرة واحدة فيفيد معنى ذي الرحم أو الوارث، وقد يلاحظ بين شخصين أجنبيين بلا ملاحظة مزيّة لأحدهما على الآخر فيفيد معنى المعين والناصر ويستتبع المحبة والمودة، وقد يلاحظ فيه المزيّة لأحدهما المعين فيفيد معنى ولي الأمر والمتصرف بالتدبير كولي الطفل والسيد، وقد يلاحظ بين مجتمعين وهو الذي يعبّر عنه بالعلاقة

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٥ ـ ٥٦.

الودّية، والمصحح لاعتباره إنما هو التعاون والتناصر، وقد يلاحظ بين شخص ومجتمع وهو لا يفيد إلا معنى تدبير الأمر والسلطان، وإن استلزم الود والعون.

وكما أنّ نفس القرب يستعمل في المكان والزمان وفي الوجود الحقيقي والمنزلة الاعتبارية بلا تكثّر في معناه، فكذلك الولاية لها معنى وحداني سار في جميع مشتقّاتها، ولها مصاديق حقيقية واعتبارية، ومحسوسة ومعقولة. واختلاف المصاديق في الخصوصيات لا يوجب تكثّراً في معناها بحيث تصير مشتركة بينها بالاشتراك اللفظي. وكما أنّ خصوصيات مصاديق القرب إنما تعرف بالمناسبات والقرائن فكذلك خصوصيات مصاديق الولاية.

الركوع

الركوع هو الإنحناء وانخفاض الرأس، ويستعمل للتواضع والتخضّع، وبمعنى انخفاض الحال وانحطاطها. قال في القاموس: ركع الشيخ: انحنى كِبَراً، أو كبا على وجهه، وافتقر بعد غنى، وانحطّت حاله. وكل شيء ينخفض رأسه فهو راكع. وفي المفردات الركوع: الانحناء، فتارة يستعمل في الهيئة المخصوصة في الصلاة كما هي، وتارة في التواضع والتذلل أما في العبادة وأما في غيرها.

فالظاهر أنه وضع في بدء الأمر للإنحناء الحسّي، ثم استعمل في التواضع والتذلل بعناية، وفي الإعسار والافتقار بعناية أخرى.

الولاية في القرآن

استعملت الولاية بصيغها المختلفة في القرآن الكريم في موارد كثيرة: فاستعمل(الولي) و(الوالي) و(المولى) في الله تعالى: وسمّى الملائكة(أولياء) المؤمنين، وسمى الطاغوت والشياطين (أولياء) الكافرين، وذكر أنّ المؤمنين بعضهم(أولياء) بعض، وكذلك الظالمون، ونهى المؤمنون عن اتخاذ الكافرين(أولياء)، ونُفيت (ولاية) المؤمنين عن الذين لم يهاجروا من المؤمنين مع الأمر بنصرهم عند الاستنصار.

واستعمل (الولي) أيضاً في الوارث وولي الدم والصديق. وإليك نماذج من الآيات الكريمة:

{اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ}[1]

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

{وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ}[1]

{وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ}[2]

{وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}[3]

{وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا}[4]

{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ}[5].

{هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا}[6]

{أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ}[7]

{وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلى اللَّهِ زُلْفَى}[8]

{مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا}[9]

{وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء}[10]

وقال سبحانه حكاية عن الملائكة {نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ}[11]

وقال عز وجل في الشياطين {إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ}[12]

---

(١) سورة الجاثية، ١٩.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١١.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٢٢.

(٤) سورة الكهف، الآية: ١٧.

(٥) سورة محمد، الآية: ١١.

(٦) سورة الكهف، الآية: ٤٤.

(٧) سورة الشورى، الآية: ٩.

(٨) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٩) سورة العنكبوت،الآية: ٤١.

(١٠) سورة الاعراف، الآية: ٣.

(١١) سورة فصلت، الآية: ٣١.

(١٢) سورة الاعراف، الآية: ٢٧.

وقال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ}[1]

{فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا}[2]

{يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا}[3]

وقال تبارك تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ}[4]

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[5]

{وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ}[6]

{ وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ}[7]

وقال عز اسمه: {لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ}[8]

{الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا}[9]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ٧٦.

(٣) سورة مريم، الآية:٤٥.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٥) سورة الانفال، الآية: ٧٢.

(٦) سورة الانفال، الآية: ٧٣.

(٧) سورة الجاثية، الآية: ١٩.

(٨) سورة آل عمران، الآية: ٢٨.

(٩) سورة النساء، الآية: ١٣٩.

نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ}[1]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء}[2]

{لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ}[3]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إِنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[4]

{وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ}[5]

وقال ـ تعالى ذكره ـ {فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ}[6]

{وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا}[7]

{فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}[8]

انحصار الولاية

قال تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ...}[9].

هذا الخطاب الإلهي يتوجه إلى الأمة الإسلامية ليحدد لها أولياءها بالخصوص. وإنّ من الواضح جداً هنا أنّ المولى غير المولى عليه.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١ ـ ٥٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٥.

(٣) سورة الممتحنة، الآية: ١.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٢٣.

(٥) سورة الانفال، الآية: ٧٢.

(٦) سورة مريم، الآية: ٥.

(٧) سورة الاسراء، الآية: ٣٣.

(٨) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

(٩) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

فالذين آمنوا ـ في تعبير الآية ـ هم غير المخاطبين المولى عليهم.

وسياق هذه الآية ليس كسياق الآية الشريفة {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْـضٍ}[1] وهو أمر لا يخفى على العارف بأساليب الكلام.

وعليه فـ {الَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ}[2] هم أفراد معيّنون لهم شأن وامتياز عن الآخرين. وذلك أما لأن هذه الصفات المذكورة تتجلى بكل واقعها فيهم، أو لأنهم سبقوا غيرهم إليها.

كما أنّ من الواضح أيضاً أنّ حقيقة هذه العلاقة المعبّر عنها بالولاية بين الله ورسوله وهـؤلاء الذين آمنوا وبين أفراد الأمة الإسلامية ليست كالرابطة المتقابلة بين فردين أو جماعتين من الأمة، أي رابطة الحب والتعاون والتناصر، وإنما هي علاقة خاصة يكون أحد الطرفين فيها مـؤثراً فـي الآخر دون العكس، وليست هي إلا الأولوية في التصرف وإن اختلفت بالنـسبة إلـى الله تعـالى والى غيره أصالة وتبعاً، وشدة وضعفاً. فولاية الله تعالى هي الاصيلة في حين أنّ ولاية الرسـول ومن يتلوه هي ولاية مستمدّة من ولاية الله تعالى.

إذا لاحظنا هذا الذي قلناه وأدركنا الربط بين الحكم الوارد في هذه الآية ومدى تناسـبه مـع موضوعه، وركّزنا على جعل ولاية الذين آمنوا ـ هؤلاء ـ في سياق ولاية الله تعـالى ورسـوله، عرفنا بدقة أنّ المراد هم أولوا الأمر الذين افترض الله تعالى طاعتهم على المؤمنين وقرن طاعتهم بطاعته وطاعة رسوله.

مدى هذه الولاية

وقد جاءت الولاية المعطاة لهؤلاء مطلقة في الآية بلا أي تقييد بجانب معيّن مـن الجوانـب، ولذا فيلتزم بهذا الاطلاق إلا ما خـرج بالـدليل القطعـي، وهـو الاسـتقلال بالولايـة التكوينيـة والتشريعية. فولايتهم على أي حال تبعية متفرّعة على ولاية الله تعالى الأصيلة المستقلة.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

من هم هؤلاء ﴿الذين آمنوا﴾؟

ومن الواضح أنّ هذا اللفظ لم يعيّن بالتحديد من هم هـؤلاء ـ بأشخاصـهم ـ ولـذا وجـب الرجوع إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وهو المرجع الوحيد في معرفة مجمـلات الكتـاب وتفاصيل الأحكام.

قال تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ}[1] وقد بيّن ذلـك بأحـسن بيـان، وبلّغ رسالة ربّه بأحسن بلاغ. وقد روى الفريقان بياناته بما لا يبقى معه مجال ريب لمـن ألقـى السمع وهو شهيد.

وهذه كتب العلماء في الحديث والتفسير والتاريخ تشكّل حجة لكل من يطلب الحق، وضـد كل معاند. فإنها تنتج العلم القطعي بمراد الآية، وأنها نزلت في شأن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حين تصدّق بخاتمه الشريف وهو راكع يصلي في المسجد.

وقد مدحه (حسان) لأجل هذه المكرمة في أبيات نقلها مثـل الخـوارزمي، وشـيخ الإسـلام الحموي، وصدر الحفّاظ الكنجي، وسبط ابن الجوزي، وجمال الدين الزرندي ـ على ما حكـاه العلامة الاميني في الغدير(ج٢ ص ٥٩) ـ وقد ذكرها الألوسي في تفسيره في ذيل الآية الشريفة.

وقد أخرج تلك الروايات جمّ غفير من أئمة الحديث والتفسير والكلام، مـنهم أبـو إسـحاق الثعلبي في تفسيره، والطبري في تفسيره (ج٦، ص ١٦٥) والرازي فـي تفـسيره(ج٣، ص ٤٣١) والخازن في تفسيره(ج١، ص ٤٩٦) عن عدة من الصحابة والتابعين. ومنهم من صرّح بـصحتها. وقد أنهى أسماء الناقلين في (الغدير) إلـى سـتة وسـتين رجـلاً (ج ٣، ص ١٥٦ ـ ١٦٢) وأمـا روايات الشيعة في ذلك فهي ربما تبلغ أحد التواتر.

وإن تعجب فعجب قول من قال: إنّ قصة الخاتم ونزول الآية فيها موضوعة مختلقة بإجمـاع العلماء(!) فهؤلاء الأكابر إما أنهم لا يعدّون عنده من العلماء، أو أنه لم يقف على كلماتهم ولـم يطّلع على كتبهم وموسوعاتهم!! لكن قتل الله العصبية فإنها تعمي وتصم. {فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ}[2].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الانعام، الآية: ٨٩.

واليك بعض ما ورد في الباب:

فعن السنة روايات كثيرة:

(منها) ما أخرجه الثعلبي في تفسيره بإسناده عن أبي ذر الغفاري قال: أما أني صليت مع رسول الله عليه وآله يوماً من الأيام الظهر، فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد شيئاً، فرفع السائل يديه إلى السماء وقال: اللهم اشهد أني سألت في مسجد نبيك محمد صلى الله عليه وآله فلم يعطني أحد شيئاً. وكان علي ـ رضي الله عنه ـ في الصلاة راكعاً، فأومأ إليه بخنصره اليمنى وفيه خاتم، فأقبل السائل فأخذ الخاتم من خنصره، وذلك بمرأى من النبي صلى الله عليه وآله وهو في المسجد. فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله طرفه إلى السماء وقال: اللهم إن أخي موسى سألك فقال {رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي* وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي* يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي}[1] فأنزلت عليه قرآناً {سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا}[2] اللهم وإني محمد نبيك وصفيك. اللهم اشرح لي صدري ويسر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي علياً اشدد به ظهري.

قال أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ فما استتمّ دعاءه حتى نزل جبرائيل عليه السلام من عند الله عز وجل قال: يا محمد اقرأ {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ}[3]

(ومنها) ما عن موفق بن أحمد في جواب مكاتبة معاوية إلى عمرو بن العاص: لقد علمت يا معاوية ما أنزل في كتابه في علي من الآيات المتلوآت في فضائله التي لا يشركه فيها أحد، كقوله تعالى: {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ}[4]، {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ}[5]، {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ..}[6]

---

(١) سورة طه، الآيات: ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢.

(٢) سورة القصص، الآية: ٣٥.

(٣) راجع غاية المرام ص ١٠٢ ب ١٨ ح١، الغدير: ج٢، ص ٥٢، عمدة ابن البطريق : الفصل ١٥ ص ٥٩.

(٤) سورة الإنسان،الآية: ٧.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(٦) سورة هود، الآية: ١٧.

وقد قال الله تعالى {رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ}[1] وقد قال الله تعالى لرسوله {قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}[2]

وقد روى المغازلي في هذا المعنى أربع روايات فراجع مناقبه (ص١١١ ـ ١١٢ ح ٣٥٤ إلى ٣٥٧) وغاية المرام(ص ١٠٤).

وعن الشيعة روايات كثيرة جداً نشير إلى بعضها:

(منها) ما رواه محمد بن يعقوب الكليني، عن علي بن ابراهيم، عن أبيه عن ابن ابي عمير عن عمر بن أذينة، عن زرارة والفضيل بن يسار ويكير بن أعين ومحمد بن مسلم وبريد بن معاوية وأبي الجارود جميعاً، عن أبي جعفر عليه السلام قال: أمر الله عز وجل رسوله بولاية علي وأنزل عليه {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ}[3] وفرض من ولاية أولي الأمر، فلم يدروا ما هي، فأمر الله محمد صلى الله عليه وآله أن يفسّر لهم الولاية كما فسّر الصلاة والزكاة والصوم والحج. فلما أتاه ذلك من الله ضاق بذلك صدر رسول الله وتخوّف أن يرتدّوا عن دينهم وأن يكذبوه، فضاق صدره وراجع ربه عز وجل، فأوحى الله عز وجل إليه {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ}[4] فصدع بأمر الله ـ تعالى ذكره ـ فقام بولاية علي يوم غدير خم، فنادى: الصلاة جماعة، وأمر الناس أن يبلغ الشاهد منهم الغائب.

قال عمر بن أذينة: قالوا جميعاً غير أبي الجارود: قال أبو جعفر عليه السلام: وكانت الفريضة تنزل بعد الفريضة الأخرى، وكانت الولاية آخر الفرائض، فأنزل الله عز وجل {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي}[5]. قال أبو جعفر عليه السلام: يقول الله عز وجل: لا أُنزل عليكم بعد هذه فريضة، قد أكملت لكم الفرائض[6].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

(٢) غاية المرام: ص ١٠٥، ح١٠.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٥) سورة المائدة، الآية:٣.

(٦) اصول الكافي: ج١، ص ٢٨٩، غاية المرام: ص ١٠٧، ب ١٩ ح٥.

(ومنها) ما عن ابن بابويه، قال حدثنا علي بن حاتم(ره)، قال حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد الهمداني، قال حديثنا جعفر بن عبد الله المحمدي، قال حدثنا كثير بن عياش، عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا}[1] قال: إنّ رهطاً من اليهود أسلموا، منهم عبد الله بن سلام وأسد وثعلبة وابن يامين وابن صوريا، فأتوا النبي صلى الله عليه وآله فقالوا: يا نبي الله، إنّ موسى عليه السلام أوصى إلى يوشع بن نون، فمن وصيك يا رسول الله؟ ومن ولينا بعدك؟ فنزلت هذه الآية {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ}[2] قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قوموا.

فقاموا وأتو المسجد: فإذا سائل خارج، فقال يا سائل، ما أعطاك أحد شيئاً؟ قال: نعم، هذا الخاتم. قال: من أعطاكه؟ قال: أعطانيه ذلك الرجل الذي يصلي. قال: على أي حال أعطاك؟ قال: كان راكعاً.

فكبّر النبي صلى الله عليه وآله وكبّر أهل المسجد، فقال النبي صلى الله عليه وآله: علي وليكم بعدي. قالوا: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وبعلي بن أبي طالب ولياً. فأنزل الله عز وجل {وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ}[3].

فروي عن عمر بن الخطاب قال: والله تصدّقت بأربعين خاتماً وأنا راكع لينزل فيَّ ما نزل في علي بن أبي طالب، فما نزل.

وقريب منهما غيرهما مما تظافر عن أصحابنا الإمامية، مثل ما عن المفيد في الاختصاص، والطوسي في أماليه ومجالسه، والعياشي في تفسيره، والطبرسي في الاحتجاج وغيرهم.

شبهات حول هذا التفسير

وهناك شبهات نذكرها، ثم نعقبها بما يناسب المقام من الرد، وهي:

(الشبهة الأولى):

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٦.

منافاة السياق لهذا التفسير، فإن هذه الآية وردت في سياق نهي المؤمنين عن ولاية اليهود والنصارى والمسارعة إليهم خشية أن تصيبهم دائرة، وهذه الولاية هي ولاية النصرة والمعونة.و لذا فإن وحدة السياق تقتضي أن يكون المراد بولاية الله تعالى ورسوله والذين آمنوا هو ولاية النصرة والمعونة أيضاً.

(والجواب):

أولاً: بأن وحدة سياق هذه الآية مع التي سبقتها غير محرزة؛ ذلك أنّ ظاهره جُلّ الروايات هو نزول هذه الآية بمفردها في سياق ما قبلها، فلا يمكن التعويل على السياق. على أنّ الأدب القرآني لا يناسب عدّ الرسول صلى الله عليه وآله ناصراً للمؤمنين، فإنه (ص) هو الأصل في كل كرامة، وكذا مَنْ هو في حكم الرسول.

وثانياً: إننا إذا تصوّرنا الولاية طبق ما سبق لم نخرق السياق على فرض وجوده؛ لأن مخالفة السياق إنما تأتي إذا افترضنا تعدد معنى الولاية وكونها تأتي بمعنى النصرة تارة، وبمعنى تدبير الأمر أخرى، بحيث يكون اللفظ مشتركاً لفظياً بين المعنيين، وقد علمنا سابقاً أنّ الأمر ليس كذلك.

فالآيات السابقة لهذه الآية تنهى عن الركون إلى أهل الكتاب والتقرّب إليهم رجاء عونهم وابتغاء العزة من قِبَلهم وخشية صولتهم، وتعلن أنّ تولّي هؤلاء لا يغني من الله شيئاً، فعسى أن يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما فعلوا نادمين.

فالعزة لله جميعاً، وهنا هو قد جعلها لرسوله وللمؤمنين، وضمن لهم النصر والغلبة، وأكد على أنّ جند الله لَهُمُ المنصورون، وأنّ حزب الله لَهُمُ الغالبون، وأنّ أعداءهم هم المهزومون؛ لأنهم يتولّون الشيطان ويسلّمونه أزمتهم، وأنّ من يتولّى أهل الكتاب فإنه منهم. وكيف يمكن تولّي قوم اتخذوا الدين هزواً ولعباً وقد غضب الله عليهم ولعنهم وجعل منهم القردة والخنازير؟ وكيف يمكن للمؤمنين أن يتولّوهم ويقيموا أواصر المودّة ويستنصروهم وهم الأعداء الألدّاء؟

وإذا لم يكن للإنسان بُدّ من اتخاذ ولي ينظر في أمره ويصلح شأنه، وينصره على أعدائه، أو فقل: يسدّ حاجاته إلى القيادة في مختلف الأمور، فليكن الله تعالى هو الولي {مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا

نَصِيرٍ [1]}، ذلك أنّ الله هو المطلق الكامل القادر على تحقيق كل ذلك ومنح الأمة النصرة، ومن هنا كان الدخول في حزب الله واعتناق ولايته هو الطريق الوحيد للعزة والكمال.

ومن ظلال ولاية الله تعالى ولاية الرسول صلى الله عليه وآله وخلفائه؛ لأنهم المعنيوّن للقيام بأمر الناس بإذن الله، وهم الذين يهدون للحق ويحكمون بالقسط، وبهم يجمع شمل الأمة، وتتحد كلمتها، وتقوى أواصرها، وباتّباعهم تسير الأمة سيراً سجحاً نحو الغاية والعزة بالدخول في حزب الله {فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [2].

ولهذا، فحتى لو قبلنا وجود سياق من هذا القبيل فإنه لا يعني ولا يلزم بأن يكون القرب الواجب تحصيله من الذين آمنوا هو نفس القرب المنهي عنه من أهل الكتاب، بحيث لا يتصور أي اختلاف بحسب المراتب والمزايا. فيكفي إذن ـ للاحتفاظ بوحدة السياق ـ أن يكون المعنيان مشتركين في أصل القرب والاتصال الذي يستتبع نوعاً من التصرّف والتدخّل في الأمور. وهذا المعنى المشترك متوفر في ولاية الكفار بنحو بسيط، وفي ولاية الله تعالى بنحو سام شديد {هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ} [3].

وخلاصة الأمر: إنّ الله تعالى نهى المؤمنين عن التقرّب إلى الكفار والتودّد إليهم وأمرهم بالتقرّب إليه تعالى والى رسوله ومن هو بمنزلته. وليس التقرّب إلى الكفار إلا بعقد المعاهدات الودّية وتوثيق العلاقات المتبادلة. أما التقرّب إلى الله تعالى فيكون بالتسليم المطلق لقضائه التكويني وأوامره التشريعية، والعمل بها، والاتّكال عليه وطلب العزة منه، كما أنّ التقرّب إلى الرسول يتمّ بقبول رسالته وإطاعته في ما بلّغه عن الله وما أمر بإذن الله، وهكذا يكون التقرب إلى ولاة الأمر بطاعتهم والانضواء تحت لوائهم، وعدم الاستقلال في الأمور دونهم.

وكل هذه الأمور تطبيقات للولاية. أما اختلاف الأحكام في هذا التطبيق عنه في غيره فهو ناتج من اختلاف مَنْ تكون له الولاية. والذي يعيّن هذه الخصوصيات هو الفهم العرفي لِمَا تقتضيه المناسبات والقرائن.

(الشبهة الثانية):

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٦.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٤.

إنّ التعبير عن الواحد بلفظ الجمع خلاف الظاهر، وهو أمر يستلزمه هذا التفسير المذكور.

وجوابها: أنه يجب أن نميّز بين استعمال لفظ الجمع في المفرد وبين انطباق العنوان الجمعي على الواحد الذي تحقق من أفراد العنوان الجمعي مع إمكان انطباق هذا العنوان على أفراد آخرين يفرض تحققهم.

هذا، وقد ورد في الآية السابقة لهذه الآية قوله تعالى: {يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ}[1] مع أنّ القائل ـ على ما رواه القوم ـ هو عبد الله بن أُبي، ولم يقع هذا التفسير موقع الإشكال من قِبَل أحد.

كما أنهم رووا في قوله تعالى: {يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ}[2] أنّ القائل هو عبد الله بن أُبي أيضاً، وكذلك في قوله تعالى: {تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ}[3] أنّ المراد هو طالب بن أبي بلتعة[4]

ويلاحظ ـ بوضوح ـ أنّ الذين رووا تلك الروايات التي مرّت كان جُلّهم من العرب العرباء الذين لم تختلط لغتهم بعد، وأنهم نقلوا تلك الروايات بدون أي ارتياب في انطباق عنوان(الذين آمنوا) هنا على الإمام علي عليه السلام.. مما يجعلنا نعرض عن تشكيكات البعض ممن اختلطت لغتهم العربية أو من حذا حذوهم من غير العرب.

ولعل السر في الإتيان بلفظ الجمع في هذه الموارد دون تعيين الشخص، هو التنبيه على عدم انحصار الملاك في القائل الخاص أو الفرد المتحقق بالفعل، وإمكان تحقق أفراد آخرين معه أو بعده.

على أنّ من يدرس الوضع العام والجوّ الذي نزلت فيه الآية يمكنه أن يلاحظ أنّ تخصيص الذكر بالإمام ـ عليه السلام ـ يتضمن ـ في ما يتضمن ـ تهييجاً للإضغان الكامنة وإثارة للحمية الجاهلية وللتقوّلات الباطلة، بخلاف ما لو ذكر بعنوان جمعي يرجى معه تحقق أفراد كثيرين له.

(الشبهة الثالثة):

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٢.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٨.

(٣) سورة الممتحنة، الآية: ١.

(٤) وقد ذكر في (الغدير) عشرين مورداً من هذا القبيل، فراجع (ج٣، ص ١٦٣ـ ١٦٧).

إنّ ما يظهر من الآية عند اطلاقها وصف (أولي الأمر) هو فعلية هذا الوصف، مع أنّ علياً عليه السلام لم يكن في زمن الرسول صلى الله عليه وآله ولي الأمر فعلاً.

والإجابة على هذه الشبهة تكمن في ملاحظة إثبات الآية الشريفة للولاية بلفظ المفرد(وليكم) لله تعالى ولرسوله ولمن يليه، وذلك يعني أنّ هناك ولاية أصيلة واحدة هي لله تعالى، أما ولاية الرسول وأولي الأمر من الأمة فهي من توابع تلك الولاية الإلهية، ومع هذا فتكفي أن تكون الولاية الأصلية فعلية.

على أننا إنما نستظهر الفعلية في ما إذا كان الحكم قد جئ به على نحو القضية الخارجية، أي يراد اثباته لموضوع خارجي متحقق بعينه فعلاً. أما لو كان الحكم قد جئ به بنحو القضية الحقيقية التي لا ينظر فيها إلى تحقق الموضوع خارجاً وإنما يفترض وجوده، فلا يستظهر الفعلية من ذلك. والحكم في هذه الآية على نحو القضية الحقيقية لا الخارجية.

(الشبهة الرابعة):

إنّ اطلاق لفظ (الزكاة) على الصدقة المندوبة خلاف الظاهر.

وهذه الشبهة هي أهون الشُبَهْ. فإن الزكاة المصطلحة في عرف المتشرّعين إنما هي اصطلاح مستحدث، في حين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام جرياً على ما يقتضيه عرف المحاورة.

وقد استعمل لفظ الزكاة كثيراً قبل أن تشرّع الزكاة المصطلحة عندنا، فقال تعالى {وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا}[1] وغير ذلك. ولاشك في أنّ المراد بها هو مطلق الانفاق لوجه الله تعالى.

(الشبهة الخامسة):

لماذا لم يحتج الإمام علي عليه السلام بها؟

قال الرازي بعد كلام طويل له خرج فيه عن حد الخُلق والإنصاف:

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.

(ولو كانت هذه الآية دالة على إمامته لاحتج بها. وليس للقوم أن يقولوا إنه ترك للتقية، فإنهم ينقلون عنه أنه تمسّك يوم الشورى بخبر الغدير والمباهلة وجميع فضائله ومناقبه، ولم يتمسك البتة بهذه الآية).

وجواب الشبهة: إنه عليه السلام قد احتجّ بهذه الآية مراراً، فقد روى أصحابنا ـ رضي الله عنهم ـ في حديث مناشدته لأبي بكر أنه قال: (فأنشدك بالله أليَ الولاية من الله مع رسول الله في آية زكاة الخاتم أم لك؟ قال: بل لك)، وفي حديث مناشدته يوم الشورى (فهل فيكم أحد آتى الزكاة وهو راكع فنزلت فيه (إنما وليكم الله..) غيري؟ قالوا: لا)[1]

(١) غاية المرام: ص ١٠٨ عن ابن بابويه بإسناده عن ابي سعيد الوراق.

ـ ٥ ـ

آية التبليغ

{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ * يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [1]

نظرة في الآيات الكريمة

خلاصة ما تؤكد عليه هذه الآيات الشريفة ـ على فرض ارتباطها ووحدة سياقها ـ أنّ أهل الكتاب لو آمنوا واتقوا وعملوا بما أنزل الله تعالى لنالوا السعادة في الدنيا والآخرة: أما الدنيا فنعمة جمّة من ماء ينزل عليهم بالخير والبركة فتحيي به الأرض بعد موتها، ونبات مختلف ألوانه، وأما الآخرة فمغفرة وجنة نعيم، إلا أنّ أكثرهم لم يتّقوا ولم يؤمنوا وعملوا السيئات فساء ما يعملون وما انحرفوا به عن السبيل السوي..

وهنا تطلب الآيات من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ـ وفي جو انحراف أهل الكتاب ـ أن يقوم بكل تأكيد بتبليغ ما أنزل إليه من ربه بلا أي اعتناء بضلال أهل الكتاب وبغيهم، أو خوف من الناس والعقبات التي توضع في طريق تبليغ رسالته. ذلك أنه صلى الله عليه وآله لو بقي ينتظر الظروف المساعدة للتبليغ ولم يستمر في ابلاغ ما نزّل عليه من أوامر الله ونواهيه وبيان وتشريعاته، فإنه لن يجد تلك الظروف المساعدة تماماً، وبالتالي لن يُتمّ الرسالة ولن يبلّغ شيئاً.

لهذا فإن عليه أن ينفّذ أوامر الله بالتبليغ دون إلقاء أي بال للتهديدات الصادرة من الجو المنحرف، فإن الله يعصمه من الناس ومن كل من لم يؤمن بشريعته وكفر بها فباء بغضب من الله وسار في طريق العمى والضلال.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٥ـ ٦٨.

وهنا يتجلّى موقف الإعلان السافر والتحدّي الكامل للجوّ الانحرافي الذي سيطر عليه أهل الكتاب، فتطلب الآيات منه صلى الله عليه وآله أن يعلن أنّ أهل الكتاب ليسوا على شيء رغم كل ما يتبجّحون به، وأنهم لن يحظوا بشيء يذكر حتى يقيموا التوراة والإنجيل ويعملوا بما أنزل اليهم من الله، ويسلّموا وجوههم للإسلام ويؤمنوا بالنبي صلى الله عليه وآله الذي بشّرت به كتبهم.. إلا أنّ العناد الذي أصيبوا به يحوّل وسائل الهداية إلى وسائل عمى وضلال، فلا يزدادوا بها إلاّ كفراً وضلالة وطغياناً.

ووفق هذا البيان يكون المراد من {مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ}[1] هو الدين الإلهي بمجموع مباديه وتشريعاته بلا نظر إلى تشريع خاص منها، فيطلب منه صلى الله عليه وآله أن يبلّغ رسالته بكل صراحة وبدون أي مواربة، ويستمر في ذلك رغم كل دسائس أهل الكتاب وعنادهم، ثم يضمن الله له العصمة والأمان من الناس وعقباتهم التي يضعونها في طريق الدعوة ومهما كانت تلك العقبات.

وقد يكون المراد جزءاً من الدين صرّح بمضمونه بعد ذلك، وهو حقيقة الإسلام والتوحيد وخسران أهل الكتاب وأنهم ليسوا على شيء في الدنيا والآخرة. فالآيات تريد نفي حالة الانتظار والتربّص والخوف من الناس والإقدام على إعلان هذا الأمر، وإلاّ كان تركه تركاً للرسالة ككل؛ لعظم ذلك وأهميته الكبرى في مجال الدعوة إلى الإسلام، لأنه يضع الحد الفاصل بصراحة، ويعلن سخف ما عند أهل الكتاب، وأنّ الدور قد انتقل منهم إلى الأمة المسلمة التي ستحتل مركز حاملة دعوة الله إلى الأمم ورائدة العمل في سبيل الله، وسترث الأرض؛ لأن الأرض إنما يرثها عباد الله الصالحون بمشيئة الله، ولا يتمثل هؤلاء الحملة إلا في حملة الإسلام، لأنه المبدأ النافع للبشرية لا غير. يقول تعالى {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}[2].

وإذا لاحظنا أنّ هذه الآيات لم تكن أول ما نزل على الرسول صلى الله عليه وآله، عرفنا أنّ عنوان {مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ}[3] لا ينطبق إلا على باقي التشريعات التي لم يكن النبي (ص) قد بلّغها بعد إلى زمن نزول الآية، حيث يطلب إليه صلى الله عليه وآله أن يديم الدعوة ويواصل تبليغ الرسالة، أو يؤكد له على حكم خاص ذكر بعد ذلك، وهو إعلان خواء أهل الكتاب، ونحن نعلم أنّ مواجهتهم للنبي صلى الله عليه وآله كانت بعد سنين مضت من صراعه(ص) مع مشركي

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

قريش في أمور أشد وأعظم، حيث هاجم أوثانهم ودعاهم إلى التوحيد، وقد كانوا أشد كفراً ونفاقاً، وألدّ خصاماً وعدواناً.

إذاً فما هو هذا الأمر العظيم الذي ينتظر النبي صلى الله عليه وآله فيه سنوح الفرصة ويخشى العقبات الكبرى في وجه اعلانه.. مما يدعو القرآن الكريم لأن يأمر بعدم الانتظار ويعطي الضمان الإلهي بالعصمة، ثم يعلن بأنه {وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ}[1]، فعدم تبليغ هذا الأمر يعني عدم تبليغ الرسالة بمجموعها؟

وواضح أنّ الآية لا تريد أن تقول: بلّغ ما أنزل اليك من ربك، وإلا فما بلغت هذا الذي انزل اليك؛ لأنه يبقى تفريعاً لا معنى له يتنزّه عن مثله كلام الله، وإنما المقصود ـ كما مر ـ أنك إن لم تبلّغ هذا الأمر فما بلّغت أصل الرسالة. ولا يقال مثل هذا القول إلا لأمر عظيم؛ تأكيداً لخطورته وأهميته. وما أكثر ما نجد العرف يقول مثلاً: مقالتي مقالتي، أو شعري شعري، لبيان أهمية كلامه أو شعره، وأنه تكفي في أهميته أنه صادر منه.

وعلى هذا فما الذي كان الرسول(ص) يخاف فيه الناس وينتظر الفرصة السانحة، رغم أنه لم يخف جور مشركي مكة وإنما هزّ مجتمعهم وبيّن سخفهم وسخف آلهتهم ووبّخهم على اتّباعهم لإبائهم وعبادتهم الأوثان بلا أدنى تخوّف وارتياب. وهذا أمر يلاحظ بمطالعة سيرته الصمودية الرائعة؟

إنه إذاً أمر عظيم يصحّ أن يقال بصدده {وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ}[2]، فكأنك إذ لم تبلّغه لم تصل إلى غرضك الأقصى ولم تبلغ الرسالة نفسها.

ولا يصحّ أن يدّعى ـ مع هذا ـ أنّ ذلك الذي أنزل من ربه هو شيء من أحكام المواريث أو الحدود أو الأطعمة والأشربة وأشباهها.

بل إننا لو تتبّعنا أحكام الإسلام وتشريعاته فرداً فرداً من مطلع الأمر لم نجد شيئاً يقبل الذهن العرفي أن يقال في حقّه أنّ في تركه تركاً للرسالة نفسها، أو يتصور انتظار النبي صلى الله عليه وآله للفرصة في تبليغه خوفاً من الناس. اللهم إلا أن يكون ذلك في حدّ الرسالة نفسها ـ عقلاً أو عرفاً ـ وهو ما يرتبط بشأن الولاية والقيادة الاجتماعية الكبرى للأمة الإسلامية التي يفترض فيها

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

أن تكون هي التي تحمل الهدى للعالم بعد أن يربّيها الإسلام على يد قادتها الحقيقيين الذين يبلّغونها واقع الإسلام ونظراته في مختلف شؤونهم الحيوية فردية أو اجتماعية.. وهو أمر يكمل به الدين وتتمّ به النعمة، وبدونه تندرس الشريعة بعد تشتت الطرق وضياع الواقع وتفرّق الأمة وتسلّط الاهواء لا محالة.

نعم، ليس هناك ما يمكن تصوّر إرادته غير هذا الشأن العظيم.

ومعه يمكن تصوّر الجوّ الذي عبّرت عنه الآيات الكريمة.

والحقيقة أننا عرفنا هذا مع رعاية السياق وقبول وحدته. ومن الواضح أنّ الآيات لا تحمل عليها من ناحية السياق والموقع معاني زائدة على معاني متونها، إلاّ أن يشكّل السياق قرينة تصرف ذهن العرف إلى أمور معيّنة تناسب تلك القرائن.

وأما بناء على نزول آية التبليغ منفردة ـ كما هو مقتضى الروايات التي وردت في شأن نزولها ـ فالأمر أظهر وأجلى.

والروايات التي تؤيد ما نستنتجه من هذه الآيات متواترة عن الشيعة والسنة.

فعن السنة روايات متظافرة عن سبعة نفر من الصحابة:

١ـ رواية زيد بن أرقم:

عن الحافظ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري في (كتاب الولاية في طرق حديث الغدير) عن زيد بن أرقم قال: لَمّا نزل النبي صلى الله عليه وآله بغدير خم في رجوعه من حجة الوداع وكان في وقت الضحى وحر شديد أمر بالدوحات فقمّت ونادى(الصلاة جامعة)، فاجتمعنا فخطب خطبة بالغة ثم قال:

إنّ الله تعالى أنزل إليّ {بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ}[1] وقد أمرني جبرائيل عن ربي أن أقوم في هذا المشهد وأعلم كل أبيض وأسود أنّ علي بن أبي طالب أخي ووصيي وخليفتي والإمام بعدي. فسألت جبرائيل أن يستعفي لي ربي لعلمي بقلة المتقين وكثرة المؤذين لي واللائمين لكثرة ملازمتي لعلي وشدة اقبالي عليه

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

حتى سمّوني (اذناً) فقال تعالى {وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُـؤْذُونَ النَّبِـيَّ وَيَقُولُـونَ هُـوَ أُذُنٌ قُـلْ أُذُنُ خَيْـرٍ لَّكُمْ}[1] ولو شئت أن اسمّيهم وأدل عليهم لفعلت، ولكنّي بسترهم قد تكرّمت، فلم يرض الله إلا تبليغي فيه.

فاعلموا معاشر الناس ذلك، فإن الله قد نصّبه لكم ولياً وإماماً، وقد فرض طاعتـه علـى كـل أحد، ماض حكمه، جائز قوله، ملعون من خالفه مرحوم من صدّقه.

اسمعوا وأطيعوا، فإن الله مولاكم وعلي إمامكم، ثم الإمامة في ولدي من صلبه إلى القيامة، لا حلال إلاّ ما أحلّه الله ورسوله، ولا حرام إلاّ ما حرّم الله ورسوله وهم، فمـا مـن علـم إلا وقـد أحصاه الله فيّ ونقلته إليه، فلا تضلّوا عنه ولا تستنكفوا منه، فهو الذي يهدي إلى الحق ويعمـل به، لن يتوب الله على أحد أنكره ولن يغفر له، حتماً على الله أن يفعل ذلك: أن يعذبه عذاباً نُكراً أبد الأبدين.

فهو أفضل الناس بعدي ما نزل الرزق وبقي الخلق، ملعون من خالفه، قولي عن جبرائيل عن الله، فلتنظر نفس ما قدمت لغد.

افهموا محكم القرآن ولا تتبعوا متشابهه، ولن يفسّر ذلك لكم إلا مَنْ أنا آخـذ بيـده، وشـائل بعضده ومعلّمكم أنّ مَنْ كنت مولاه فهذا علي مولاه، وموالاته عن الله عز وجل أنزلها علـي. ألا قد أدّيت. ألا وقد أبلغت. ألا وقد أسمعت. ألا وقد أوضحت. لا تحـل امـرة المـؤمنين بعـدي لأحد غيره.

ثم رفعه إلى السماء حتى صارت رجله مع ركبة النبي صلى الله عليه وآله وقال:

معاشر الناس! هذا أخي ووصيي وواعي علمي وخليفتي على من آمن بي وعلى تفسير كتاب ربي.

وفي رواية: اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، والعن من أنكره، واغضب على مـن جحـد حقه. اللهم إنك أنزلت عند تبيين ذلك في علي {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}[2] بإمامته، فمـن لـم يأتمّ به وبمن كان من ولدي من صلبه إلى القيامة فأولئـك حبطـت أعمـالهم وفـي النـار هـم

(١) سورة التوبة، الآية: ٦١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

خالدون. إنّ ابليس أخرج آدم عليه السلام من الجنة مع كونه صفوة الله بالحسد، فلا تحسدوا فتحبط أعمالكم وتزل أقدامكم.

في علي نزلت سورة {وَالْعَصْرِ* إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ}[1].

معاشر الناس، آمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزل معه من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارهم أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت. النور من الله فيّ ثم في علي ثم في النسل منه إلى القائم المهدي.

معاشر الناس، سيكون من بعدي أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون، وأنّ الله وأنا بريئان منهم، إنهم وأنصارهم وأتباعهم في الدرك الأسفل من النار، وسيجعلونها ملكاً اغتصاباً، فعندها يفرغ لكم أيها الثقلان، ويرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ـ الحديث[2].

٢ـ رواية أبي سعيد الخدري

عن ابن أبي حاتم وابن مردويه والواحدي النيسابوري باسنادهم إلى أبي سعيد الخدري أنّ الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله يوم غدير خم في علي بن أبي طالب[3].

٣ـ رواية ابن عباس:

عن الحافظ أبي عبد الله المحاملي بإسناده عن ابن عباس قال: لما أمر النبي صلى الله عليه وآله أن يقوم بعلي بن أبي طالب المقام الذي قام به، فانطلق النبي(ص) إلى مكة فقال: رأيت الناس حديثي عهد بكفر. بجاهلية، ومتى أفعل هذا به يقولوا صنع هذا بابن عمه.

ثم مضى حتى قضى حجة الوداع ثم رجع حتى إذا كان بغدير خم أنزل الله عز وجل(يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ـ الآية ـ فقام منها فنادى(الصلاة جامعة) ثم قام وأخذ بيد علي ـ رضي الله عنه فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال والاه، وعاد من عاداه[4].

---

(١) سورة العصر، الآية: ١، ٢.

(٢) الغدير: ج١، ص ٢١٤ ـ ٢١٦، نقلاً عن (ضياء العالمين).

(٣) الغدير: ج١، ص ٢١٦، ح ٢و ٥، ص ٢١٨، ح ٨، و ص ٢٢٢ عن الشوكاني في فتح القدير(ج٣، ص ٥٧).

(٤) الغدير: ج١، ص ٥٢، وص ٢١٦.

وروى الحافظ أبو بكر الفارسي الشيرازي في كتابه(ما نزل من القرآن في أمير المؤمنين) عن ابن عباس أنّ الآية نزلت يوم غدير خم في علي بن أبي طالب[1].

٤ـ رواية جابر بن عبد الله الانصاري:

عن الحافظ الحاكم الحسكاني في (شواهد التنزيل) بإسناده عن ابن عباس وجابر الانصاري قالا: أمر الله تعالى محمداً أن ينصّب علياً للناس فيخبرهم بولايته، فتخوّف النبي صلى الله عليه وآله أن يقولوا: حابى ابن عمه، وأن يطعنوا في ذلك عليه. فأوحى الله {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ} فقام رسول الله صلى الله عليه وآله بولايته يوم غدير خم[2].

٥ـ رواية البراء بن عازب:

عن السيد علي الهمداني في (مودة القربى) عن البراء بن عازب قال: أقبلت مع رسول الله صلى الله عليه وآله في حجة الوداع، فلما كان بغدير خم نودي(الصلاة جامعة)، فجلس رسول الله (ص) تحت شجرة وأخذ بيد علي وقال: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. فقال: ألا، من أنا مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، فلقيه عمر فقال: هنيئاً لك يا علي بن ابي طالب! أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، وفيه نزلت {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ}[3].

٦ـ رواية أبي هريرة:

عن شيخ الإسلام ابي اسحاق الحموينى في كتابه (فرائد السمطين) عن مشايخه الثلاث السيد برهان الدين ابراهيم بن عمر الحسيني المدني، والشيخ الإمام مجد الدين عبد الله بن محمود الموصلي، وبدر الدين محمد بن محمد بن أسعد البخاري بإسنادهم عن ابي هريرة أن الآية نزلت في علي[4].

---

(١) الغدير: ج١، ص ٢١٦، ح٤.

(٢) الغدير: ج١، ص ٢١٩، ح١٠.

(٣) الغدير:ج١، ص ٢٢٠، ح ١٧.

(٤) الغدير: ج١، ص ٢٢٠، ح ١٦.

٧ـ رواية ابن مسعود:

عن القاضي الشوكاني في تفسيره(فتح القدير) عن ابن مردويه عن ابن مسعود قال: كنا نقرأ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ} ـ أن علياً مولى المؤمنين ـ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) [١] .

❊ ❊ ❊

وعن الشيعة روايات كثيرة جداً:

(منها) ما رواه ثقة الإسلام الكليني عن الفضلاء عن مولانا الباقر عليه السلام قال: فأمر الله محمداً صلى الله عليه وآله أن يفسر لهم الولاية كما فسر لهم الصلاة والزكاة والصوم والحج. فلما أتاه ذلك من الله ضاق بذلك صدر رسول الله (ص) وتخوف أن يرتدوا عن دينهم وأن يكذبوه، فضاق صدره وراجع ربه عز وجل فأوحى الله عز وجل إليه {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ [2] } فصدع بأمر الله ـ تعالى ذكره ـ فقام بولاية علي عليه السلام يوم غدير خم، فنادى(الصلاة جماعة) وأمر الناس أن يبلغ الشاهد الغائب.[٣]

(ومنها) ما رواه الكليني أيضاً عن مولانا ابي عبد الله عليه السلام في حديث طويل، قال: فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله من حجة الوداع نزل عليه جبرائيل عليه السلام فقال: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [٤] ، فنادى الناس فاجتمعوا، وأمر بسمرات فقم شوكهن، ثم قال صلى الله عليه وآله (يا) أيها الناس من وليكم وأولى بكم من أنفسكم؟ فقالوا: الله ورسوله. فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ـ ثلاث مرات [٥] .

---

(١) الغدير: ج١، ص ٢٢٢، ح ٢٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٣) اصول الكافي: ج١، ص ٢٨٩. وقد مضى تمام الحديث في ذيل آية الولاية ص ٧٥.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٥) اصول الكافي: ج١، ص ٢٩٥.

(ومنها) ما رواه شيخنا الطبرسي في الاحتجاج مسنداً إلى مولانا ابي جعفر الباقر عليه السلام في حديث طويل، قال فيه: فلما بلغ غدير خم قبل الجحفة بثلاثة أميال أتاه جبرائيل عليه السلام على خمس ساعات مضت من النهار بالزجر والانتهاء والعصمة من الناس. فقال: يا محمد، إنّ الله عز وجل يقرئك السلام ويقول: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ـ في علي ـ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} وكان أوائلهم قريباً من الجحفة، فأمره أن يرد من تقدم منهم ويحبس من تأخر عنهم في ذلك المكان ليقيم علياً للناس ويبلغهم ما انزل الله في علي عليه السلام، وأخبره بأن الله عز وجل قد عصمه من الناس. فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله عندما جاءت العصمة منادياً ينادي في الناس (الصلاة جامعة) ـ إلى أن قال ـ وأؤدي ما أوحي إليَّ حذراً من أن لا أفعل فتحل لي منه قارعة لا يدفعها عني أحد وإن عظمت حيلته، لأنه قد أعلمني أنّي إن لم أبلّغ ما أنزل إليّ فما بلغت رسالته. وقد ضمن لي تبارك وتعالى ـ العصمة، وهو الله الكافي الكريم.

فأوحى الله إليّ: بسم الله الرحمن الرحيم. يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ـ يعني في الخلافة لعلي بن أبي طالب ـ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته[1].

(ومنها) ما رواه العياشي في تفسيره بإسناده عن أبي صالح عن ابن عباس وجابر بن عبد الله قالاً: امر الله محمداً صلى الله عليه وآله أن ينصّب علياً للناس ليخبرهم بولايته، فتخوّف رسول الله(ص) أن يقولوا: حابى ابن عمه، وأن يطعنوا في ذلك. فأوحى الله إليه {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} فقام رسول الله صلى الله عليه وآله بولايته يوم غدير خم[2].

(١) الاحتجاج (طبعة النجف) ج١، ص ٦٩.

(٢) غاية المرام: ص ٣٣٦، ج٤.

ـ ٦ ـ

آية الاكمال

{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخنْزِيرِ وَمَا أُهلَّ لغَيْرِ اللّه به وَالْمُنْخَنقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئسَ الَّذينَ كَفَرُواْ من دينكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نعْمَتي وَرَضيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ في مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[1]

قبل البحث

وقبل كل شيء يجب أن نلاحظ أنّ المقطع الشريف {الْيَوْمَ يَئسَ الَّذينَ كَفَرُواْ..} يتعرض لموضوع مستقل عن مطلع الآية وعن ذيلها أيضاً، وذلك سواء قلنا: أنّ هذا المقطع نزل في هذا الموضع من أول الأمر، أو قلنا أنّ النبي صلى الله عليه وآله هو الذي أمر بوضعه في هذا الموضع رغم اختلاف نزوله عن الصدر والذيل، أو قلنا أنه موضوع بهذا الموضع عند الجمع القرآني.

وإذا كان هذا المقطع {الْيَوْمَ يَئسَ..} مستقلاً عن مطلع الآية وختامها، فهو مرتبط تمام الارتباط بقوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...} بحسب المضمون والأخبار.

وهذا المقطع الشريف يعلن حقيقة كبرى وبشارة عظمى للمسلمين بأن قد يئس أعداؤهم الكفار من أن يمحوا دينهم، فلا خشية منهم على شيء، وإن قد أكمل الله دينه وأتمّ نعمته ورضي الإسلام ديناً للأمة.. وهذا المعنى تدل عليه بعض الآيات الشريفة الأخرى والروايات المتظافرة وكتب التاريخ المعتمد عليها.

متى كان هذا اليوم؟

قد احتملت في هذا اليوم عدة احتمالات، فمنها:

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(الاحتمال الأول) ما ذكره الفخر الرازي في تفسيره من أنه كلام جار على عادة أهل اللسان، ومعناه أن لا حاجة بكم الآن إلى مداهنة هؤلاء الكفار. وذلك كما يقال مثلاً: كنت شاباً بالأمس وعدت اليوم شيخاً. فالمقطع الشريف يتحدث عن حقيقة كانت قائمة آنذاك حيث انتشرت ألوية الإسلام، وعلت قوّته، وزال خوف المسلمين من الكفار بعد أن هزموا وغلبوا، فيئسوا من الغلبة والانتصار على المسلمين، فقال تعالى {الْيَوْمَ يَئِسَ..}.

ولكن هذا الاحتمال مردود لأمور:

الأول: إنّ هذا الاستعمال وإن كان عرفياً لكنه استعمال مجازي لا حقيقي، وإذا أمكن الاستعمال الحقيقي كان احتماله مقدّماً على احتمال الاستعمال المجازي.

الثاني: أنه لو صحّ هذا التفسير للمقطع الشريف لكان نزوله يوم فتح مكة أجدر من نزوله في غيره.

الثالث: أنه إن كان المراد من اكمال الدين هو الاكمال التشريعي فلابد من اثبات عدم نزول حكم بعد نزول الآية، مع أنه قد وردت روايات كثيرة تدل على نزول أحكام بعد ذلك اليوم كآية الكلالة وآية الربا ونحوهما.. فالإكمال التشريعي أمر تأباه الروايات الكثيرة من قِبَل الفريقين.

أما ما قال به القفال واختاره الرازي من أنّ معنى الاكمال هو أنّ الشرائع النازلة من عند الله في كل وقت كافية في ذلك الوقت، ولكن الشريعة الإسلامية في آخر زمان البعثة صارت كاملة الى يوم القيامة.

فهو مما لا محصل له ولا يؤبه له.

الرابع: أنّ هذا الاحتمال لا ينسجم مع أي ترابط بين قوله تعالى: {الْيَوْمَ يَئِسَ..} وقوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ..} مع أنهما منسجمان كمال الانسجام.

(الاحتمال الثاني): ما قال به الشيعة، وهو أنّ المراد بهذا اليوم هو يوم غدير خم، أي الثامن عشر من ذي الحجة من السنة العاشرة من الهجرة، وأنّ هذا المقطع الشريف قد نزل في أمر ولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام.

وخلاصة هذا الرأي: أنّ الكفار بعد أن رأوا حقيقة الانتصار الإسلامي وأذعنوا لسيطرة الإسلام وتوسّعه لم يبق لديهم أمل في إيقاف الزحف الإسلامي إلى معاقلهم، وتفتت القوى الإسلامية

النامية إلا أن يتربّصوا بالنبي صلى الله عليه وآله ريب المنون، حيث تموت الحركة بموت قائدها وباعثها.. وذلك بعد أن صوّرت لهم أوهامهم أنّ قيادة الرسول (ص) للحركة الإسلامية الكبرى شبيهة بالقيادات الدنيوية المادية الأخرى، التي ذاب أتباعها بعد أن مات القائد. وهو ما ينطبق عليه التعبير القرآني الشريف {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ[1]} لأن شانئ النبي صلى الله عليه وآله إنسان لا يحمل هدفاً أو رسالة.

هكذا تصوّر أعداء الإسلام واقع الإسلام، ولكنهم فوجئوا بالقيادة الإسلامية الأولى تعلن عن القيادة الإسلامية التي ستخلّفها في حفظ الدين والقيام على التجربة الإسلامية وتوسيع مجالها وتعميق الجانب التربوي في حملتها.. وإذا بالقيادة النبوية التي ظنّوها ستنتهي تعلن عن الإمامة التي هي الامتداد الطبيعي لها، فتلقّى الكفار في وهدة اليأس من الظفر والعمل على تحطيم الدين، وذلك حين رأت القيادة الشخصية تسلّم الأمر إلى القيادة النوعية المتمثلة في الأئمة عليهم السلام.

ولا ريب في أنّ هذه العملية التاريخية تستحق أن تكون اكمالاً للدين بالضرورة بعد أن انتقلت بالإسلام من حالة الحدوث إلى حالة الاستمرار والبقاء، ليقوم بدوره التاريخي العظيم في مجال إيصال البشرية إلى كمالها المنشود. فالإمامة والولاية هي الضمان الأول لاستمرار التجربة الإسلامية الكبرى، وبتعيين الإمام تكمل الاطروحة الإسلامية للحياة الإنسانية، وبه تتم النعمة ويرضى الله الإسلام ديناً خالداً للبشرية.

وعليه، فإن محصل معنى الآية الشريفة هو التأكيد على يأس الكفار عن الدين في يوم الغدير حيث أكمل الله للأمة دينها بفرض الولاية والإمامة، وأتمّ عليها بذلك النعمة، ورضي لها الإسلام ديناً.

ومثل هذا التفسير لا يمكن أن يُشكَل عليه بأي إشكال.

الدليل على صحة هذا التفسير:

بعد أن لاحظنا أنّ التفسير الشيعي لهذا المقطع الشريف هو التفسير الطبيعي المنسجم، لابد من الرجوع إلى الآيات والروايات لإثباته ونفي أي تفسير غيره.

---

(١) سورة الكوثر، الآية: ٣.

وروايات الشيعة الدالة على هذا الأمر مستفيضة بل متواترة. إلا أنّ هناك من السنة من يقول بأن المراد به يوم عرفة من ذي الحجة من تلك السنة مستدلاً بروايات تنتهي إلى علي عليه السلام ومعاوية وسمرة وعمر.

والغريب جداً أن نجدهم معرضين عن روايات مستفيضة لديهم تصرّح بأن الآية نزلت يوم غدير خم في إمامة أمير المؤمنين عليه السلام.. فهم لا يتعرّضون لها، وكأنها ليست بمستفيضة لديهم. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عدم موضوعية وتحيّز سافر وعناد.

نعم، نقل صاحب(الدر المنثور) وصاحب(روح البيان) روايتين من الروايات الدالة على أنّ الآية نازلة في الغدير، ولكنهما وصفا الروايتين ـ وتنتهيان إلى أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ـ بالضعف السندي.

والواقع:

أولاً: إنّ الروايات التي تدل على أنّ المراد باليوم يوم الغدير وهو اليوم الثامن عشر من ذي الحجة من سنة حجة الوداع حيث وقف الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في غدير خم بعد رجوعه من مكة، هذه الروايات لا تنحصر سنداً في ما ذكره هذان المؤلفان، بل رويت عن أبي سعيد وأبي هريرة وزيد بن أرقم وجابر بن عبد الله الانصاري وابن عباس ومجاهد والإمامين الباقر والصادق عليهما السلام بطرق عديدة.

وثانياً: أن الروايات المنتهية إلى أبي هريرة وأبي سعيد الخدري صحيحة سنداً على موازين القوم أنفسهم، فقد أثبت العلامة المرحوم الأميني أنها صحيحة دلالة وسنداً وفق قواعدهم التي بنوا عليها.

وثالثاً: أن الروايات الواردة في نزولها يوم عرفة ضعيفة سنداً غير ما روي منها عن عمر، كما ذكر ذلك الاستاذ العلاّمة الطباطبائي ـ مد ظله العالي ـ في تفسيره القيّم (الميزان).

ورابعاً: أن هذه الروايات التي تدل على نزول هذا المقطع الشريف في قضية الولاية مؤيدة بالروايات الواردة في سبب نزول قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ..}[1] كما

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

أثبتناه، وكذلك تؤيد بالروايات الواردة في سبب نزول قوله تعالى: {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ[1]}. فراجع تلك الروايات وتأملها بدقة تجدها مؤيدة بوضوح لما قلناه.

وخامساً: أننا لو قلنا أنّ الاحتمالات الأخرى في الآية غير الاحتمال الشيعي خالية من إشكالات واردة عليها فلقائل أن يقول: بأن الروايات المرويّة في هذه الاحتمالات مخالفة للكتاب، فيجب طرحها والأخذ بالروايات المؤيدة للاحتمال الشيعي، وهو ما قاله الاستاذ العلامة الطباطبائي ـ دام ظله ـ

وسادساً: نجد أنّ احتمال الفخر الرازي ـ وهو كون المراد باليوم هو اليوم العام النوعي ـ مردود بما روي عن عمر من أنه قال له بعض أهل الكتاب: إن في القرآن آية لو نزلت علينا مثلها لاتخذنا اليوم عيداً، وهي قوله {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}[2]. فقال: والله إنّي لا علم اليوم، وهو يوم عرفة من حجة الوداع. ذلك أنّ هذا الخبر صريح في أنّ المراد هو يوم معيّن مشخّص لا غير.

وسابعاً: أننا لو أغمضنا النظر عن الإشكالات السابقة وقلنا بصحة الروايات التي تروي نزول الآية في غير يوم الغدير، وجب أن نلاحظ قوانين التعارض بين الأخبار، وليس من الموضوعية في شيء أن نلتزم بأحد الجانبين المتعارضين دون الآخر بلا ملزم، بل مع رجحان الجانب الآخر.

***

ومما يحلّ المشكلة أنه يمكن الجمع بين النوعين من الروايات بوجهين:

(الوجه الأول) ما قال به سبط ابن الجوزي من نزول الآية مرّتين.

وليس هذا بِدْعاً في الآيات، فكم له من نظير! وقد جمع العلاّمة الأميني ـ رحمه الله ـ الآيات النازلة مرّتين بعد أن بحث في قوله تعالى: {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ}.

(الوجه الثاني) ما قال به العلامة الأميني وسدده العلامة الطباطبائي ـ دام ظله ـ من أنه يحتمل الاختلاف بين يوم النزول ويوم التلاوة، على أساس أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يتّقي الناس في إظهار أمر الولاية خشية أن يتلقوه بالقبول فيختل أمر الدعوة، أو تقع الفرقة والاختلاف في

(١) سورة المعارج، الآية: ١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

الأمة الإسلامية، فكان لا يزال يؤخره من يوم إلى يوم منتظراً سنوح الفرصة المناسبة حتى نزل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ}[1].

وبهذا يكون من الجائز أن يكون نزول معظم السورة ـ ومنه قوله تعالى: {الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ ـ إلى قوله ـ وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا}[2] يوم عرفة إلا أنّ النبي صلى الله عليه وآله أخرّ بيان الولاية ـ لِمَا مرّ ـ إلى يوم غدير خم.

وعليه، فيرتفع التعارض بين القسمين من الروايات بأن يكون ما دل على نزول الآية يوم عرفة ينظر إلى يوم النزول، وما دل على أنّ المراد هو يوم غدير خم ينظر إلى يوم التلاوة والتبليغ، وتنطبق الآية حينئذ على أمر الولاية.

وحقيقة الأمر: أننا لو تدبّرنا قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ}[3] والروايات الواردة في سبب نزوله، وتأملنا قوله تعالى: {الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ ـ إلى قوله تعالى: ـ وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا} والروايات الواردة في سبب نزوله أيضاً والتعارض الذي يتراءى فيها. ولاحظنا الروايات الواردة في قضية غدير خم الكبرى، وركّزنا على الأوضاع الداخلية للمجتمع الإسلامي آنذاك، أي في أواخر عهد الرسول صلى الله عليه وآله ودور الكفار ومؤامراتهم وحقدهم الذي تعبرّ عنه الآية القرآنية الشريفة على لسانهم {وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[4]. حيث نجدهم يطلبون العذاب على فرض كون النبي على حق، وهو منتهى العناد الذي تعبرّ عنه آية أخرى هي {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ}[5]، على ضوء الروايات الواردة في سبب نزولها.. إذا لاحظنا كل هذا قطعنا وعلمنا بأن أمر الولاية كان نازلاً قبل يوم الغدير، ويكون هذا شاهداً لهذا الجمع.

الروايات من الفريقين:

فعن السنة توجد روايات متظافرة رواها جمع من الصحابة:

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٣) سورة المائدة، الآية:٦٧.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.

(٥) سورة المعارج، الآية: ١.

(منها) ما رواه ابراهيم بن محمد الحموييني بسنده إلى أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري أنّ النبي صلى الله عليه وآله يوم دعا الناس إلى غدير خم أمر الناس بما كان تحت الشجرة من الشوك فقم، وذلك يوم الخميس، ثم دعا الناس إلى علي عليه السلام، فأخذ بمعصمه فرفعها حتى رأى الناس إلى بياض ابطه، ثم لم يفترقا حتى نزلت هذه الآية {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا}[1] فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: الله أكبر على اكمال الدين وإتمام النعمة ورضا الرب برسالتي والولاية لعلي عليه السلام.

ثم قال: اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله[2].

وقريب من ذلك رواية أخرى رواها أبو نعيم الاصبهاني في كتابه(ما نزل من القرآن في علي) وأبو سعد السجستاني في كتاب (الولاية) والحاكم الحسكاني وابن عساكر وموفق أحمد الخوارزمي في (المناقب) وغيرهم[3].

(ومنها) ما عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: من صام يوم ثمان عشر من ذي الحجة كتب له صيام ستين شهراً، وهو يوم غدير خم لما أخذ النبي صلى الله عليه وآله بيد علي بن أبي طالب فقال: ألست أولى بالمؤمنين؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال من كنت مولاه فعلي مولاه. فقال عمر بن الخطاب: بخ بخ يا ابن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مسلم. فأنزل الله {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ـ الآية}[4].

(ومنها) ما عن جابر الانصاري وأبي سعيد الخدري، قالا: لما نزلت {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ـ الآية ـ} قال النبي صلى الله عليه وآله: الله اكبر على اكمال الدين وإتمام النعمة ورضى الرب برسالتي وولاية علي بن أبي طالب بعدي[5].

وعن الشيعة أيضاً روايات كثيرة:

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) غاية المرام: ص ٣٣٧، ح٢.

(٣) الغدير: ج١، ص ٢٣١ ـ ٢٣٤.

(٤) الغدير: ج١، ص ٢٣٣.

(٥) الغدير: ج١، ص ٢٣٤.

(منها) ما عن الصادقين عليهما السلام أنه أنزل الله بعد أن نصّب النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام علماً للأنام يوم غدير خم عند منصرفه من حجة الوداع. قالا: وهي آخر فريضة أنزلها الله تعالى، لم ينزل بعدها فريضة[1].

وقريب منه سائر ما رواه البحراني ـ رضوان الله عليه ـ في هذا الباب عن علي بن ابراهيم القمي والطبرسي والعياشي ـ في تفاسيرهم ـ والطوسي في أماليه والطبرسي في الاحتجاج وابن بابويه في اماليه وغيرهم.

(ومنها) ما رواه في الخصائص عن الصادقين عليهما السلام قالا: نزلت هذه الآية(يعني آية التبليغ) يوم الغدير، وفيه نزلت {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}.

قال: وقال الصادق عليه السلام: أي اليوم أكملت لكم دينكم بإقامة حافظه، وأتممت عليكم نعمتي أي بولايتنا، ورضيت لكم الإسلام ديناً أي تسليم النفس لأمرنا[2].

(ومنها) ما رواه في (الكافي) عن أبي جعفر عليه السلام في حديث: وكانت الفريضة تنزل بعد الفريضة الأخرى، وكانت الولاية آخر الفرائض فأنزل الله عز وجل {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي}.

قال أبو جعفر عليه السلام: يقول الله عز وجل: لا أنزل عليكم بعد هذا فريضة، قد اكملت لكم الفرائض.[3]

وقد مر تمام الحديث في ذيل آية الولاية فراجع.

---

(١) غاية المرام: ص ٣٣٨، ح٤.

(٢) الغدير، ج١، ص ٢٣٤.

(٣) اصول الكافي: ج١، ص ٢٨٩.

ـ ٧ ـ

آية علم الكتاب

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ}[1].

موقف الكفار من النبي(ص)

هذه الآية المباركة خاتمة سورة الرعد المكية، التي تتعرّض كغيرها من السور المكية إلى شبهات الجاحدين والمعاندين، وتعاميهم عن الآيات الواضحة والحجج الساطعة على الحق والرسالة، وطلبهم من النبي صلى الله عليه وآله الحجة تلو الحجة تبريراً لعنادهم وجحودهم.

ومنها مثلاً:

قوله تعالى: {وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا} إلى قوله تعالى: {أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ}[2].

وقوله تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ}.

ومن الواضح أنّ إعراضهم لم يكن لنقص في حجج النبي صلى الله عليه وآله، وآياته، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون، فما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون.

وفي مجال الرد على أمثال هؤلاء يلقّن الله رسوله تارة بأن يقول لهم {إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ}[3] متعجباً من موقفهم المعاند المكابر بعد كل هذه الآيات الساطعة التي أُوتيها الرسول صلى الله عليه وآله، وكفى بالقرآن وحده آية قاطعة لا تقبل الجدل والرد.

فإذا كانوا يجحدون بكل هذه الآيات فبأي حديث بعده يؤمنون؟!

---

(١) سورة الرعد،الآية: ٤٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٠ ـ ٩٣.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٧.

وأخرى يأمره أن يقول في جواب اقتراحهم للآيات الست {قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً}[1] وفي هذا الجواب تثبيت للنبي صلى الله عليه وآله وتقوية له، فلن يضرّه جحود الكافرين وعنادهم بعد أن كان الله شهيداً بينه وبينهم وكفى بالله شهيداً.

ومن هنا رأينا الفرزدق الشاعر يقول في قبال تعامي هشام بن عبد الملك عن شخصية الإمام زين العابدين عليه السلام:

وليس قولك (من هذا؟) بضائره

العرب تعرف من أنكرت والعجم

وهذا الجواب بنفسه تحقير لأولئك المعاندين بقدر ما هو تقوية للحق وتثبيت لقلب الرسول صلى الله عليه وآله. ونجده تعالى ـ ثالثة ـ يلقّنه صلى الله عليه وآله أن يطلب اليهم ـ مبكتاً لهم ـ أن يرجعوا إلى آيات الله الماثلة في كل شيء، ونعمه الغامرة للكون، والتي يتقلّب فيها الناس،ثم يطلب اليه أن يتحدّاهم بمعجزته الخالدة حيث يقول تعالى {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً}[2].

إلى غير ذلك من أساليب الجواب في القرآن الكريم.

أما إذا ركّزنا النظر على هذه الآية المبحوث عنها وجدنا أنها تعرض تكذيباً من قِبَل أعداء الإسلام للنبي صلى الله عليه وآله وترد عليه بالأسلوب الثاني من الاساليب الماضية، أي اسلوب تسلية النبي صلى الله عليه وآله وتقوية عزيمته من جهة، وتحقير المعاندين والاستخفاف بهم من جهة أخرى.

ذلك أنّ أعداء الحق من دأبهم التشبّث بكل وسيلة ممكنة لإطفاء نوره ومحو حجّته أو إضعافه فعلاً أو قولاً ـ على الأقل ـ .

أما الوقوف العملي فقد تحدث عنه القرآن الكريم والتاريخ بما لا مزيد عليه، وأما الوقوف القولي بوجهه فقد اتخذوا له أشكالاً مختلفة:

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

فقد كانوا ينسبون اليه (ص) السحر والجنون ونحوهما، هادفين إلى أن يفتنوه عن الذي أوحاه الله تعالى اليه ويضعفوا من عزمه الراسخ.

كما كانوا يشيعون تكذيبهم له ويعلنونه، محاولين الضغط النفسي عليه صلى الله عليه وآله كي يبخع نفسه وينهار غماً وحسرة؛ لأن أقل ثمن للحق هو التصديق به. أما انكاره والتعامي عنه فمما يبعث على الاسف والحسرة. ولعمرك هذا من أشجى المحن. ومن هنا يقول القرآن الكريم تسليةً للنبي صلى الله عليه وآله وتسكيناً لقلبه:

{فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا}[1].

{لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[2].

{فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ}[3].

نعم، إنّ هذا العناد والتكذيب السخيف للحق والرسالة ينتج الحزن والحسرة، خصوصاً في قلب حامل الرسالة، المتألّم لها، العامل على نشر العدل في الأرض بعد أن يرى أمامه هؤلاء الجاهلين يقفون حجر عثرة في سبيل هدفه العظيم.. وقد أدرك الجاحدين مدى حرص النبي صلى الله عليه وآله على نشر رسالته وحمله لها، فراحوا يزيدون من حربهم النفسية ضده، فتارة يجحدون آيات الرسالة، وأخرى يجحدون الرسالة نفسها لإضعاف عزمه وتثبيت همّته.

ولكن الله العظيم كان يمدّ نبيه صلى الله عليه وآله بالعزم القوي والتثبيت تلو التثبيت،ليشد من أزره ويزيد من إصراره على الحق، دون أي التفات لتقوّلات الجاحدين، فيقول تارة:

{قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ}[4].

(١) سورة الكهف، الآية: ٦.

(٢) سورة الشعراء، الآية:٣.

(٣) سورة فاطر، الآية:٨.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٣٣ ـ ٣٤.

وأخرى يقول تعالى: {قُلْ كَفَى بِاللّه شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ..}[1] ليؤكد له أن لا وزن لتكذيبهم وجحودهم بعد أن شهد الله ـ وهو أكبر الشهود ـ على رسالته، إذ أوحى اليه القرآن الكريم معجزة خالدة تتحدى الجميع من جهة، وتثبت رسالة الرسول الأعظم من جهة أخرى بقوله تعالى: {إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}[2]. وهي شهادة إلهية عظمى لا تعدلها شهادة، ولا يضر معها جحود هؤلاء بل جحود أهل الأرض.

{إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ}[3].

الشهادة الثانية وفضلها

إنّ الآية الكريمة تذكر شهادتين عظيمتين: إحداهما شهادة الله وما أعظمها من شهادة!! والأخرى شهادة مَنْ عنده علم الكتاب، وكفى باقتران شهادة مَنْ عنده علم الكتاب بشهادة الله تعالى كرامةً وفضلاً لها.

ومن الواضح أنّ سرّ هذه الكرامة والجلالة هو توفّره على (عِلْمُ الْكِتَابِ)، فما أجلَّ هذا العلم وأرفع قدره!

وقد كشف القرآن الكريم عن شيء من حقيقته في آية أخرى، وهي قوله تعالى: {قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ}[4]، فتحدّث عن عمل عجيب خارق للعادة، وهو جلب عرش بلقيس من سبأ خلال أقل من ارتداد الطرف، ونسبه إلى مَنْ عنده علم من الكتاب. وإذا كان هذا شأن مَنْ عنده علم من الكتاب فما هو يا ترى شأن من عنده علم الكتاب كله؟! {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}[5].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٤٣.

(٢) سورة يس، الآية: ٣.

(٣) سورة إبراهيم،الآية: ٨.

(٤) سورة النمل، الآية: ٤٠.

(٥) سورة الحديد، الآية: ٢١.

من هو هذا الذي عنده علم الكتاب؟

إذا لاحظنا اتصاف شهادة هذا الشاهد الثاني بالكفاية للرسول صلى الله عليه وآله في دعوته، وصحتها واقترانها بشهادة الله تعالى، توضّح لدينا أنه لا يمكن أن يكون هذا الشاهد هو ما جاء في قوله تعالى: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ}[1]، أو ما جاء في قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ}[2]، حيث فسر بعلماء أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام. فلا يمكن أن يكون ذلك الشاهد العظيم هو عبد الله بن سلام وأمثاله، سواء كانت الآية أو السورة نازلة في مكة المكرمة أو المدينة المنورة.

ومن هنا يتضح الخلط الذي قد يشاهد عند بعض المؤلفين بين من عنده علم الكتاب وأهل الكتاب، ظنّاً منهم بأنهما مفهومان متّحدان؛ ولذا فَهُم يطبّقونه على ابن سلام وأمثاله. وتلك مغالطة نشأت من التشابه اللفظي بينهما. ولعل هؤلاء كانوا سيفسرون آية: {قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ..}[3] أيضاً بذلك لولا وقوع هذه الآية في قصة سيدنا سليمان ـ على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام ـ !.

وهذا الخلط والاشتباه والضلال في الواقع ناشئ من ترك التمسك بالثقلين، وقد امروا بأن يتمسكوا بهما بقوله صلى الله عليه وآله في الحديث المتواتر بين الفريقين (إني مخلف فيكم الثقلين، إن تمسكتم بهما لن تضلوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي)[4]

وقد ورد عن العترة الطاهرة عليهم السلام في تفسير {عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ} روايات كثيرة جداً من طرق الفريقين. فعن طريق القوم روايات مستفيضة:

(منها) ما رواه الفقيه ابن المغازلي الشافعي مسنداً عن عبد الله بن عطاء، قال: كنت عند أبي جعفر عليه السلام جالساً إذ مرّ عليه ابن عبد الله بن سلام، قلت: جعلني الله فداك، هذا ابن الذي عنده علم الكتاب؟ قال: لا، ولكن صاحبكم علي بن أبي طالب عليه السلام الذي نزلت فيه آيات

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١٠.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٩٧.

(٣) سورة النمل، الآية: ٤٠.

(٤) مناقب ابن المغازلي: ص ١٣٤.

من كتاب الله عز وجل: ومن عنده علم الكتاب، أفمن كان على بيّنة من ربّه ويتلوه شاهد منه، إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا [1].

وأما عن طرقنا فروايات متظافرة:

(منها) ما رواه ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني(ره) في الصحيح عن بريد بن معاوية، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: {قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ}[2] قال: إيّانا عنى، وعلي أولنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبي صلى الله عليه وآله[3].

(ومنها) ما رواه أيضاً مسنداً عن سدير قال: كنت أنا وأبو بصير ويحيى البزاز وداود بن كثير في مجلس أبي عبد الله عليه السلام إذ خرج الينا وهو مغضب، فلما أخذ مجلسه قال: يا عجباً لأقوام يزعمون أنّا نعلم الغيب! ما يعلم الغيب إلا الله عز وجل. لقد هممت بضرب جاريتي فلانة، فهربت منّي، فما علمت في أي بيوت الدار هي.

قال سدير: فلما أن قام من مجلسه وصار في منزله دخلت أنا وأبو بصير وميسر وقلنا له: جعلنا فداك، سمعناك وأنت تقول كذا وكذا في أمر جاريتك ونحن نعلم أنك تعلم علماً كثيراً ولا ننسبك إلى علم الغيب.

قال: فقال: يا سدير، ألم تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قال: فهل وجدت في ما قرأت من كتاب الله عز وجل: {قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ}[4]؟ قال: قلت: جعلت فداك، قد قرأته. قال: فهل عرفت الرجل وهل علمت ما كان عنده من علم الكتاب؟ قال: قلت: أخبرني به. قال: قدر قطرة من الماء في البحر الأخضر، فما يكون ذلك من علم الكتاب! قال: قلت: جعلت فداك، ما أقل هذا! فقال: يا سدير، ما أكثر هذا أن ينسبه الله عز وجل إلى العلم الذي أخبرك به. يا سدير، فهل وجدت في ما قرأت من كتاب الله عز وجل: {قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ}[5]؟ قال: قلت: قد قرأته جعلت فداك. قال: أفمن عنده علم الكتاب

---

(١) اصول الكافي: ج١، ص ٢٢٥، ح٦.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٤٣.

(٣) أصول الكافي: ج١، ص ٢٥٧ ح ٣.

(٤) سورة النمل، الآية: ٤٠.

(٥) سورة الرعد، الآية: ٤٣.

كله أفهم أم من عنده علم الكتاب بعضه؟ قلت: لا، بل من عنده علم الكتاب كله. قال: فأومأ بيده إلى صدره وقال: علم الكتاب والله كله عندنا، علم الكتاب والله كله عندنا[1].

ـ ٨ ـ

آية البينة

{أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ}[2].

الإستفهام إنكاري، أي ليس من كان على بيّنة وكذا وكذا كغيره ممن ليس كذلك، نظير قوله تعالى: {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ}[3].

البيّنة:

هي الدلالة الواضحة كما في المفردات، وبما أنّ الأمور الواضحة ربما تظهر بها متعلقاتها كثر استعمالها في ما يتبيّن به غيره كالحجة والدليل.

ولذا تطلق في القرآن الكريم على الآيات ومعجزات الانبياء؛ لأنها فاصلة بين الحق والباطل، وبها تبين، كقوله تعالى: في سورة الاعراف(الآية٧٣) {قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً}[4] وقوله تعالى: حكاية عن نوح عليه السلام {أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ}[5] وقوله تعالى: حكاية عن قوم هود {مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ}[6].

---

(١) اصول الكافي: ج١ ص ٢٥٧. ح٣.

(٢) سورة هود، الآية: ١٧.

(٣) سورة محمد، الآية: ١٤.

(٤) سورة الأعراف، الآية:٧٣.

(٥) سورة هود، الآية: ٢٨.

(٦) سورة هود، الآية: ٥٣.

وقوله تعالى: حكاية عن صالح عليه السلام {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ}[1] وقوله تعالى: حكاية عن موسى عليه السلام {قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}[2]، إلى غير ذلك.

ووصف البيّنة بأنها من الرب تبارك وتعالى إنما يناسب الآية الإلهية لا الحجة العقلية.

والمراد بها في الآية المبحوث عنها هو القرآن؛ لأنه المعجزة الخالدة كقوله {قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ}[3]، وقوله تعالى: {أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ}[4]، ومن هنا يظهر أنّ المراد بالموصول هو صاحب البيّنة ـ أعني النبي صلى الله عليه وآله ـ وهو مبتدأ خبره محذوف، أي كغيره ممن ليس كذلك.

قوله تعالى: {وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ}[5] الضميران فيه يرجعان إلى (من) مع احتمال أن يكون مرجع الضمير في (يتلوه) هو البيّنة. و(يتلوه) من (التلو) لا من (التلاوة) أي يلي صاحب البيّنة أو البيّنة، والأمر سهل.

فمعنى الآية: من كان على بيّنة هي القرآن ويتبعه بلا فصل شاهد منه، أي من هو من نفسه صلى الله عليه وآله. وفي هذا تشريف وتعريف للشاهد بأنه من رسول الله(ص) أي بعضه وبمنزلته، فلا ينطبق على مثل عبد الله بن سلام.

قوله تعالى: {أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ}[6] أي أولئك المؤمنون في مقابل الكفار، أو هُمْ ونفس صاحب البيّنة والشاهد، فيكون بمثابة قوله تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ..}[7].

---

(١) سورة هود، الآية:٦٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٠٥.

(٣) سورة الأنعام، الآية:٥٧.

(٤) سورة الأنعام، لآية: ١٥٧.

(٥) سورة هود، الآية: ١٧.

(٦) سورة البقرة، الآية:١٢١.

(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

ويحتمل أن تكون الجملة في مقام تسلية النبي صلى الله عليه وآله بأن أهل الكتاب يؤمنون بـه، كقوله تعالى: في سورة العنكبوت (الآية ٤٧) {وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَـابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ}[1] وفي سورة الرعد(الآيـة ٣٦) {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِـرُ بَعْـضَه}[2] وفـي سـورة القصص(الآية ٥٢) {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِـهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ}[3].

قوله تعالى: {فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ}[4] المخاطب بهذا الخطاب هو النبي صلى الله عليه وآله إلا أنه على نحو (إياك أعني واسمعي يا جارة) كما ورد في الآثار، مثل ما رواه عبد الله بن بكير عـن أبي عبد الله عليه السلام قال:نزل القرآن بإياك أعني وأسمعي يا جارة[5].

ونظير الآية في ذلك قوله تعالى: {أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَـصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}[6] وقوله تعالى: {فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَـقُّ مِـن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}[7] وقوله تعالى: {الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}[8]، وقوله تعالى: {الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ}[9].

معطيات الآية الكريمة

الأول: أنّ هذا الشاهد هو من رسول الله صلى الله عليه وآله أي من بيته؛ لوجود(منه) في الآيـة، وبذلك ينطبق على أهل البيت المذكورين في آية التطهير.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٧.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٦.

(٣) سورة القصص، الآية: ٥٢، ٥٣.

(٤) سورة هود، الآية: ١٧.

(٥) راجع المقدمة الرابعة من تفسير الصافي.

(٦) سورة الأنعام، الآية١١٤.

(٧) سورة يونس، الآية: ٩٤.

(٨) سورة البقرة، الآية: ١٤٧.

(٩) سورة آل عمران، الآية: ٦٠.

الثاني: أنّ هذا الشاهد يأتي تلو الرسالة لقوله تعالى: (يتلوه) وأنه بمنزلة النبي صلى الله عليه وآله كما هو مفاد عبارة (وأنفسنا) الواردة في آية المباهلة، وأنّ شهادته تساوق شهادة الله؛ لأنها اقترنت بها في قوله تعالى: {وَمَنْ عندَهُ علْمُ الْكتَاب}[1] كما مر. أما لو كان الضمير في (يتلوه) يرجع إلى واقع البيّنة أي القرآن كانت الآية تركّز المضمون الذي ركّزه حديث الثقلين، الذي جعل العترة عِدْلاً لكتاب الله ومُبيّنة له.

الثالث: أنه مما لا شك فيه أن الشهادة هنا شهادة التأدية، ولابد من أن يسبقها تحمّل الشهادة. وليس هذا التحمّل عن إيمان بالنبوة، وإلا لَمَا كان هناك وجه لأن تختص الشهادة بفرد معيّن كما يظهر من الآية، حيث جاء الشاهد بلفظ المفرد والتنكير. فلابد إذن أن تكون مقوّمات شهادة هذا الشاهد مختلفة عن غيرها، وذلك بأن تكون شهادته عن حضور وشهود لحقيقة النبوة ورؤية جبرائيل حامل الوحي إلى الرسول صلى الله عليه وآله، وبذلك ينفرد هذا الشاهد عن غيره.

ويؤيد هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام (إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى) كما جاء في الخطبة القاصعة الواردة في نهج البلاغة[2]، وما روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: كان علي عليه السلام يرى مع النبي صلى الله عليه وآله قبل الرسالة الضوء ويسمع الصوت. وقال له الرسول(ص): لولا أني خاتم الأنبياء لكنت شريكاً في النبوة[3].

الرابع: أنّ الشهادة إنما تكون لإزالة الريب والشك عن المدّعى، ولا يتمّ ذلك ـ خصوصاً في هذا الأمر العظيم ـ إلا إذا انتفى السهو والنسيان عن الشاهد، إذ مع احتمال الخطأ لا يزول الشك ولا يثبت المدّعى بهذه الشهادة. وواضح أنه لا يرتفع احتمال الخطأ إلا مع كون الشاهد معصوماً.

الخامس: إننا إذا جمعنا بين هذه الآية والآية في آخر سورة الرعد عرفنا أنّ هذا الشاهد المذكور هنا هو مَنْ عنده علم الكتاب المذكور هناك.

هذه خلاصة المعطيات التي نستفيدها من نفس الآية الشريفة بتأييد من الآيات الأخرى.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٤٣.

(٢) رقم الخطبة ٢٣٤، راجع شرح ابن ميثم: ٤، ص ٣٠٧.

(٣) راجع شرح ابن ميثم: ج٤، ص ٣١٨.

الشاهد كما ورد في الأحاديث

وفي المقام روايات كثيرة من طرق الفريقين في بيان الشاهد وأنه أمير المؤمنين عليه السلام. فمما روي عن السنة ما رواه موفق بن أحمد الخوارزمي قال: كتب عمرو بن سعد بن أبي العاص إلى معاوية في ردّ مكاتبته اليه في طلبه الإعانة على قتال أمير المؤمنين عليه السلام، كتب إليه:

(من عمرو بن سعد بن أبي العاص صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله إلى معاوية بن أبي سفيان. وقد علمت يا معاوية ما أنزل الله تعالى في كتابه فيه من الآيات المتلوّات في فضائله التي لا يشركه فيها أحد، كقوله تعالى: {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ}[1] و{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ}[2]، {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَة مِّن رَّبِّه وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِه}[3]. وقد قال الله تعالى {رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْه}[4] وقد قال الله تعالى: لرسوله {قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْه أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}[5]. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى؟ سلمك سلمي وحربك حربي. وتكون أخي ووليي في الدنيا والآخرة.

يا أبا الحسن من أحبّك فقد احبّني، ومن أبغضك فقد أبغضني، ومن أبغضني أدخله الله النار. وكتابك يا معاوية الذي هذا جوابه ليس مما ينخدع به من له عقل أو دين. والسلام)[6].

(ومنها) ما رواه الخوارزي أيضاً: قوله تعالى: {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَة مِّن رَّبِّه وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ}[7] قال ابن عباس: هو علي عليه السلام يشهد النبي صلى الله عليه وآله وهو منه[8].

---

(١) سورة الإنسان، الآية:

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(٣) سورة هود، الآية ١٧.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٢.

(٥) سورة الشورى، الآية: ٢٣

(٦) غاية المرام : ص ٣٥٩، ح١.

(٧) سورة هود، الآية: ١٧

(٨) غاية المرام: ص ٣٥٩، ح٢.

(ومنها) ما عن الحمويني مسنداً عن زادان قال: سمعت علياً عليه السلام يقول: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو كسرت لي وسادة ـ يقول: ثنيت ـ فأجلست عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل الزبور بزبورهم، وبين أهل القرآن بفرقانهم. والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما من رجل من قريش جرت عليه المواسي إلا وأنا أعرف آية تسوقه إلى جنة أو تسوقه إلى نار. فقام رجل فقال: أيش[1] نزل فيك؟ فقال علي عليه السلام: {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ} فرسول الله صلى الله عليه وآله على بيّنة من ربّه، ويتلوه ـ أنا ـ شاهد منه[2].

وقريب منه باختلاف يسير ما رواه الثعلبي عن السبيعي[3]

(ومنها) ما عن الحمويني أيضاً عن ابن عباس: {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ} رسول الله صلى الله عليه وآله {وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ} علي عليه السلام خاصة[4].

ورواه الثعلبي في تفسيره مسنداً عن ابن عباس[5].

(ومنها) ما رواه أبو نعيم الحافظ بثلاثة طرق عن عباد بن عبد الله الاسدي في خبر، قال: سمعت علياً عليه السلام يقول: {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ} رسول الله صلى الله عليه وآله على بيّنة من ربّه، وأنا الشاهد[6].

ورواه النطنزي في الخصائص، وحماد بن سلمة عن ثابت عن أنس، والقاضي عثمان بن أحمد وأبو نصر العشير في كتابيهما، والفلكي المفسر عن مجاهد وعبد الله بن سداد.

وأما عن طرق الشيعة فروايات متظافرة أيضاً:

---

(١) يعني أي شيء.

(٢) غاية المرام: ص ٣٥٩، ح٤.

(٣) غاية المرام: ص ٣٦٠، ح٩.

(٤) غاية المرام: ص٣٥٩، ح٣.

(٥) غاية المرام: ص ٣٦٠، ح٨.

(٦) غاية المرام: ص ٤٣٠، ح١١.

(منها) ما عن محمد بن الحسن الصفار، عن محمد بن الحسين، عن عبد الله بن حماد، عن أبي الجارود، عن الاصبغ بن نباتة قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: لو كسرت لي الوسادة فقعدت عليها لقضيت بين أهل التوراة بتوراتهم، وأهل الانجيل بانجيلهم، وأهل الفرقان بفرقانهم، بقضاء يصعد إلى الله يزهر. والله ما نزلت آية في كتاب الله في ليلة أو نهار إلا وقد علمت في مَنْ أنزلت، ولا مر على رأسه المواسى إلا وقد نزلت آية فيه في كتاب الله تسوقه إلى الجنة أو النار.

فقام اليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين فالآية التي نزلت فيك؟ قال: أما سمعت الله يقول: {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ}؟ فرسول الله صلى الله عليه وآله على بيّنة من ربّه، وأنا شاهد له منه، وأتلوه معه[1].

(ومنها) ما عن الشيخ في أماليه بإسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام قال يوم الجمعة يخطب على المنبر فقال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما من رجل قريش جرت عليه المواسي إلا وقد نزلت فيه آية من كتاب الله عز وجل أعرفها كما أعرفه. فقام اليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، ما آيتك التي نزلت فيك؟ فقال: إذا سألت فافهم، ولا عليك أن لا تسأل عنها غيري! أقرأت سورة هود؟ فقال: نعم، يا أمير المؤمنين. قال: أفسمعت قول الله عز وجل يقول: {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ}؟ قال: نعم. قال: فالذي على بيّنة من ربّه محمد صلى الله عليه وآله ويتلوه شاهد منه، وهذا الشاهد هو منه وهو علي بن أبي طالب، وأنا الشاهد، وأنا منه[2].

(ومنها) ما عن الشيخ في مجالسه مسنداً عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده علي بن الحسين عن الحسن عليهم السلام في خبطة طويلة خطبها بحضور معاوية وقال عليه السلام فيها:

أقول: معشر الخلائق ولكم أفئدة وأسماع، وهو أنّا أهل بيت أكرمنا الله بالإسلام واختارنا واصطفانا واجتبانا، فأذهب عنا الرجس وطهرنا تطهيراً. والرجس هو الشك، فلا نشك في الله الحق ودينه أبداً، وطهرنا من كل أفن وعيبة مخلصين إلى آدم، نعمة منه. لم يفترق الناس فرقتين إلا جعلنا الله في خيرهما، فات الامور إلى أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله للنبوة واختاره للرسالة وأنزل عليه كتابه، ثم أمره بالدعاء إلى الله عز وجل، فكان أبي عليه السلام أول من استجاب لله تعالى ولرسوله، وأول من آمن وصدق الله ورسوله. وقد قال الله تعالى في كتابه المنزل

---

(١) غاية المرام: ص ٣٦١، ح٣.

(٢) غاية المرام: ص ٣٦١، ح٤.

على نبيه المرسل {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ} فرسول الله صلى الله عليه وآله الذي على بيّنة من ربّه، وأبي عليه السلام الذي يتلوه، وهو شاهد منه [1] ـ الخطبة.

(ومنها) ما عن العياشي عن بريد بن معاوية العجلي عن أبي جعفر عليه السلام قال: الذي على بيّنة من ربّه رسول الله صلى الله عليه وآله، والذي تلاه من بعده الشاهد منه أمير المؤمنين عليه السلام ثم أوصياؤه واحداً بعد واحد [2].

(ومنها) ما رواه العياشي أيضاً عن جابر بن عبد الله بن يحيى قال: سمعت علياً عليه السلام وهو يقول: ما من رجل من قريش إلا وقد أنزلت فيه آية أو آيتان من كتاب الله. فقال له رجل من القوم: فما أنزل فيك يا أمير المؤمنين؟ فقال: أما تقرأ الآية التي في هود {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ} ؟ محمد صلى الله عليه وآله على بيّنة من ربّه، وأنا الشاهد [3].

---

(١) غاية المرام: ص ٣٦١، ح٥.

(٢) غاية المرام: ص ٣٦٢، ح٨.

(٣) غاية المرام: ص ٣٦٢، ح٩.

ـ ٩ ـ

آية المباهلة

{فَمَنْ حَآجَّكَ فيه من بَعْد مَا جَاءكَ منَ الْعلْم فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّه عَلَى الْكَاذبينَ}[1]

المحاجّة: هي تبادل الحجة، وهي ما يقصد بـه إثبـات المـدّعى، سـواء كـان دلـيلاً حقـاً أو مغالطة باطلة.

أما الابتهال: فهو الإسترسال في الدعاء والتضرّع. وقيل:هي كلمة مأخوذة من البهلة أي اللعنة.

ويسبق هذه الآية قوله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عيسَى عندَ اللّه كَمَثَلِ آدَمَ..}[2] الذي يحتجّ بـه القـرآن على النصارى الذين جعلوا ولادة المسيح عليه السلام من غير أب دليلاً على كونه ابن الله، فردّ الله عليهم بأن مَثَله كمثل آدم عليه السلام إذ خلقه من غير أب وأم، ولم يكن هذا دليلاً على بنوّتـه لله تعالى أو ألوهيته، وكذلك الأمر في عيسى بن مريم(ع).

وهذه الحجة بقطع النظر عن كونها وحياً إلهيـاً هـي حجـة عقليـة لا تقبـل المعارضـة، إلا أنّ النصارى كانوا يجادلون ويبالغون في الجدال، ويصرّون على الضلال، فلـم يكـن ثمـة سـبيل إلا بإرجاع الأمر إلى الله تعالى حتى يحكم بالحق وهو خير الحاكمين. ومن هنا فقـد أمـر الله تعـالى رسوله أن يعرض عليهم مسألة الابتهال إلى الله كي يجعل لعنتـه علـى الكـاذبين، ويعلـن صـدق الصادقين.

وقد كان هذا التحدي الحسّي الكبير يشكّل حدّاً ومنعطفـاً تاريخيـاً كبيـراً للـدعوة الإسـلامية وموقفها من أعدائها؛ لأنه الدليل الحاسم الذي لا يمكن تكذيبه.

ولكي يبدو بوضوح اطمئنان صاحب الدعوة المُباهَل، بدعوته وصدقه، طلبت الآيـة أن يحـضر كل من المتباهلين خاصّته من أهله وولده، ليبدو الحق جليّاً وينكشف صدق النوايا، في حين يكون

---

(١) سورة آل عمران، الآية:٦١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

الإحجام عن ذلك دليل التزلزل والارتياب. إذ قد يحسم الأمر قبل الوصول إلى اللحظة الأخيرة، حيث يرى الخصم اطمئنان صاحب الدعوة بدعوته وتعريض نفسه وأحبّائه لمثل هذا الأمر الخطير، فيكشف له أنه على الحق، وقد يستسلم له ويرتدع من ضلاله.

وقد عبّرت الآية بتعبير موجز عن هذه الدعوة فقال تعالى {تَعَالَوْاْ نَدْعُ..} بمعنى تعالوا كي ندعو نحن وأنتم خاصّتنا وأهلينا للمشاركة في الابتهال. ولعلّه لبيان شدّة الاطمئنان قدّمت الآية ذكر الابناء، ثم ذكرت النساء، ثم ذكرت الخاصة، باعتبار أنّ عناية الإنسان بحفظ ولده الصغير والغيرة على نسائه أشدّ منها بالنسبة لسائر خاصّته.

هذا، وقد اتفقت الروايات وأطبق المفسرون والمؤرّخون على أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله دعا وفد النصارى إلى المباهلة، وحضر بنفسه وأهل بيته علي وفاطمة والحسنان عليهم السلام، إلا أنّ النصارى أحجموا عن المباهلة عندما شاهدوا هؤلاء الصفوة، واقترحوا أن يعطوا الجزية، فقبل النبي صلى الله عليه وآله ذلك منهم.

ومما لا ريب فيه أنّ الآية تدلّ على فضل عظيم وكرامة باهرة لأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، وهو أمر اعترف به أعاظم المفسّرين والمحدّثين من السنّة، بعد أن اعترفوا باتفاق الرواة وصحة رواياتهم في ذلك.

قال العلامة الجصّاص في (أحكام القرآن):

نقل رواة السيَر ونقلة الأثر ـ لم يختلفوا فيه ـ أنّ النبي صلى الله عليه وآله أخذ بيد الحسن والحسين وعلي وفاطمة ـ رضي الله عنهم ـ ثم دعا النصارى الذين حاجّوه إلى المباهلة، فأحجموا عنها، وقال بعضهم لبعض: إن باهلتموه اضطرم الوادي عليكم ناراً، ولم يبق نصراني ولا نصرانية إلى يوم القيامة[1].

وقال الرازي بعد نقل رواية في ذلك:

إعلم أنّ هذه الرواية كالمتفق على صحتها بين أهل التفسير والحديث[2].

---

(١) أحكام القرآن: ج٢، ص ١٤.

(٢) التفسير الكبير ـ ذيل الآية ـ

وقال في الكشاف: فيه دليل ليس أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام[1].

وقال الآلوسي في روح المعاني بعد نقل الرواية: ودلالتها على فضل آل الله ورسوله مما لا يمتري فيها مؤمن. والنصب جازم الإيمان ـ إلى أن قال ـ والنواصب زعموا أنّ ما وقع منه صلى الله عليه وآله كان لمجرد إلزام الخصم وتبكيته، وأنه لا يدل على فضل أولئك ـ على نبينا وعليهم أفضل الصلاة وأكمل السلام ـ وأنت تعلم أنّ هذا الزعم ضرب من الهذيان، وأثر من مسّ الشيطان.

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل[2].

دلالة الآية على فضل أهل البيت عليهم السلام

الآية تأمر بدعوة الأبناء والنساء والأنفس ـ بصيغ الجمع في الجميع ـ وامتثال هذا الأمر يقتضي إحضار ثلاثة أفراد من كل عنوان لا أقل منها، تحقيقاً لمعنى الجمع. لكن الذي أتى به النبي صلى الله عليه وآله في مقام امتثال هذا الأمر على ما يشهد به صحيح الحديث والتاريخ لم يكن كذلك، وليس لفعله(ص) وجه إلا انحصار المصداق في ما أتى به. فالآية بالنظر إلى كيفية امتثالها بما فعل النبي(ص) تدل على أنّ هؤلاء هم الذين كانوا صالحين للاشتراك معه في المباهلة وأنهم أحب الخلق اليه، وأعزّهم عليه، وأخصّ خاصّته لديه، وكفى بذلك فخراً وفضلاً.

ويؤكد دلالتها على ذلك أنه صلى الله عليه وآله كان له عدة نساء ولم يأت بواحدة منهن سوى بنت له، فعلى من يحمل ذلك الاعلى شدة اختصاصها به وحبّه لها لأجل قربها إلى الله وكرامتها عليه؟

كما أنّ انطباق عنوان (النفس) على علي عليه السلام لا غير يدل على أعظم فضيلة وأكرم مزيّة له عليه السلام حيث نزل منزلة نفس النبي صلى الله عليه وآله.

ويؤيده ما رواه الفريقان عن رسول الله صلى الله عليه وآله حديث قال لعلي عليه السلام

(أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)[1] وقوله (أنت منّي وأنا منك)[2] وقوله (علي نفسي فمن رأيته يقول في نفسه شيئاً؟!)[3].

---

(١) الكشاف ج١، ص ٣٧٠.

(٢) روح المعاني: ج٣: ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

وقد احتج مولانا أمير المؤمنين عليه السلام بهذه الفضيلة يوم الشورى واعترف القوم بها ولم ينكروا عليه. وقد بلغ الأمر من الوضوح مبلغاً لم يبق فيه مجال للإنكار من مثل ابن تيمية. فقد اعترف بصحة الحديث القائل بأن نفس رسول الله صلى الله عليه وآله في الآية هو علي عليه السلام، إلا أنه جعل ملاك التنزيل هو القرابة. ولَمّا التفت إلى انتقاضه بعمه العباس حيث إنّ العم أقرب من ابن العم قال(إن العباس لم يكن من السابقين، ولا كان له اختصاص بالرسول صلى الله عليه وآله كعلي). فاضطر إلى الاعتراف بأن مناط تنزيل علي عليه السلام منزلة نفس النبي صلى الله عليه وآله ليس هو القرابة فقط، بل سبقه إلى الإسلام واختصاصه بالنبي(ص). وهل يكون اختصاصه به صلى الله عليه وآله إلا لأجل أفضليته من غيره وأقربيته إلى الله سبحانه؟!

ثم إنّ في قوله تعالى: {نَدْعُ أَبْنَاءنَا..} إشارة إلى أنّ لغيره صلى الله عليه وآله شأناً في الدعوة إلى المباهلة، حيث أضاف الأبناء والنساء إلى ضمير المتكلم مع الغير، مع أنّ المحاجّة كانت مع النبي صلى الله عليه وآله خاصة، كما يدل عليه قوله تعالى: {فَمَنْ حَآجَّكَ}. وهذا هو الذي يستفاد من قوله تعالى: {وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ}[٤] وقوله تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِ}[٥]، كما يؤيده ما ورد فيها من الروايات، وهو مقتضى اطلاق التنزيل في قوله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام (أنت منّي بمنزلة هارون من موسى).

ويؤيد ذلك قوله تعالى: {فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ}[٦]، فإن المراد بالكاذبين هنا ليس كل من هو كاذب في كل إخبار ودعوى، بل المراد هم الكاذبون المفروضون في أحد طرفي المحاجّة والمباهلة، فلا محالة يكون المدّعي في كلا الجانبين أكثر من واحد، وإلا لكان حق الكلام أن يقال مثلاً (فنجعل لعنة الله على من هو كاذب) حتى يصحّ انطباقه على الفرد أيضاً. فالمشتركون مع النبي صلى الله عليه وآله في المباهلة شركاء له في الدعوى.

---

(١) قد انهى البحراني الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله والمشتملة على هذه العبارة من طرق السنة إلى مائة حديث ومن طرق الشيعة إلى سبعين حديثاً، فراجع غاية المرام: ص ١٠٩ ـ ١٥٢.

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي والحاكم وغيرهم.

(٣) رواه ابن النجار.

(٤) سورة هود، الآية: ١٧

(٥) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

وحيث إنّ المحاجّة إنما وقعت بين النبي صلى الله عليه وآله وبين النصارى لا لمجرد الـدعوى بل لأجل دعوتهم إلى الإسلام، وأنّ الحضور للمباهلة كان تبعاً لتلك الدعوى والـدعوة، فحـضور من حضر أمارة على كون الحاضرين مشاركين له في الدعوى والدعوة معاً. وهـذا مـا نبّـه عليـه الاستاذ العلامّة ـ أدام الله ظِلاله.

توهّم باطل

ومن الواضح البيّن أنه مع الاعتراف بصحة الروايات لا يبقى مجال لإنكار دلالة الآية على فضل أهل البيت عليهم السلام، حتى أنّ الزمخشري قال (فيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء) وجعل الآلوسي إنكار ذلك ضرباً من الهذيان، وأثراً من مسّ الـشيطان، وقـال (والنـصب جازم الإيمان) إشارة إلى أنّ الدافع لإنكار مثل هذه الفضيلة لـيس إلا النـصب، ثـم صـرّح بـأن النواصب هم الذين لهجوا بهذا الهذيان.

فإذا بلغت العصبية برجل إلى حد لا تدعه يعترف معه بهذه الفضيلة الباهرة لأهل بيت نبيه صلى الله عليه وآله فلابد له من التشكيك في صدور الروايات، لكن أنّى يمكنه ذلك؟ مع رواية جمّ غفير من الصحابة كجابر بن عبد الله والبراء بن عازب وأنس بن مالك وعثمان بن عفان وعبـد الـرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عباس وأبي رافع مولى النبي صـلى الله عليه وآله وغيرهم، ورواية جمع من التابعين عنهم كالسدي والشعبي والكلبي وأبي صالح، واطباق المحدثين والمؤرخين والمفسرين على ايداعها في موسوعاتهم كمسلم والترمذي والطبـري وأبـي الفداء والسيوطي والزمخشري والرازي، مصرّحين باتفاق الروايات وصحتها.

فما ظنّك برجل يغمض عينه عن جميع ذلك ويقول بعد اعترافه بنفسه على اتفاق الروايات مـا لفظه: (ومصادر هذه الروايات الشيعة، ومقصدهم منها معروف، وقد اجتهـدوا فـي ترويجهـا مـا استطاعوا حتى راجت على كثير من أهل السنة، ولكن واضعيها لم يحسنوا تطبيقها على الآية، فإن كلمة (نساءنا) لا يقولها العربي ويريد بها بنته، لا سيّما إذا كان له أزواج، ولا يفهم هذا من لغتهم.

وأبعد من ذلك أن يراد بـ(أنفسنا) علي ـ عليه الرضوان ـ ثم إنّ وفد نجران الذين قالوا أنّ الآية نزلت فيهم لم يكن معهم نساؤهم وأولادهم)[1].

فغاية حسن الظن به يقتضي أن يوجّه كلامه بأنه لَمّا زعم أنّ الروايات غير مطابقة لظاهر الآية صار جازماً بعدم صدورها، فأساء الظن إلى الشيعة وألقاها اليهم رجماً بالغيب. لكن من ذا الذي يقبل من مثله هذا الإغماض وعذره في هذا الخطأ الفاحش والبهتان المدهش؟!

وإذا جاز ردّ مثل هذا الروايات ورفضها على كثرتها وتصريح أئمة الحديث بصحتها، فعلى أي رواية يمكن الاعتماد، وبأي سنّة يصح الاستناد؟ ومع رفض السنة رأساً كيف يمكن الاطلاع على تفاصيل الأحكام والشرائع وسائر ما ورد في القرآن؟ وهل هذا إلا هدم لأساس الدين، وسد لباب معرفة الشرع المبين؟

ثم إنّ ما زعم من عدم انطباق الروايات على ظاهر الآية توهّم فاسد وتقوّل لا يليق بمثله ممن له أدنى معرفة بمعاني السنة، وأنس بعبارات الروايات ولهجتها. فليس مفاد ما ورد من أنّ (أنفسنا) علي عليه السلام(ونساءنا) فاطمة عليها السلام أنّ اللفظتين استعملتا فيهما، بل المراد أنّ النبي صلى الله عليه وآله لم يأت في مقام الامتثال إلا بهما فانطبق العنوانان عليهما.

وكذا ما استشكل به من عدم وجود النساء والأبناء مع نصارى نجران، فإن هذا الأشكال إنما يتوجّه لو كان المراد بلفظه(من) في قوله(فمن حاجّك) هو وفد نجران، وليس كذلك. ضرورة أنّ اللفظة عامة لم تستعمل إلا في معناها الكلي، غاية الأمر أنّ المصداق الذي انطبق عليه هذا العنوان الكلي عند نزول الآية الشريفة هذا الوفد، من غير أن يتخصص اللفظ بهم، ومن غير أن يكون مستعملاً فيهم.

وهذا أمر واضح لا يكاد يخفى على من له سمع واع، وفهم سليم، وقلب خال عن العصبية.

وقد روى هذه الرواية ودرس تفسير الآية من هو أكثر أصالة في العروبة، وبراعة في الأدب، ومهارة في معرفة أساليب الكلام ونقد كلمات الأدباء والبلغاء من هذا الرجل، ولم يحصل لهم أدنى ارتياب فيها وفي صحة انطباقها على الآية الكريمة. فكان على الرجل أن يتّهم نفسه وفهمه،

---

(١) المنار: ج٣، ص ٣٢٢.

ويجتهد في تزكية نفسه وتصفية قلبه، حتى يصير صالحاً لقبول الحق ونور العلم. والله يهدي بنوره من يشاء..

***

واليك نماذج مما رواه الفريقان في هذا المجال:

(فمنها) ما رواه أبو نعيم الحافظ بإسناده عن الشعبي عن جابر قال: قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله العاقب والطيب، فدعاهما إلى الإسلام، فقالا: أسلمنا يا محمد. فقال: كذبتما، إن شئتما أخبرتكما ما يمنعكما من الإسلام؟ فقالا: هات الينا. قال: لحب الصليب وشرب الخمر ولحم الخنزير. قال جابر: فدعاهما إلى الملاعنة، فواعداه إلى أن يغادياه بالغداة. فغدا رسول الله صلى الله عليه وآله وأخذ بيد علي والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام فأرسل إليهما، فأبيا أن يجيباه وأقرا له. فقال رسول الله(ص) : والذي بعثني بالحق لو فعلا لأمطر عليهم الوادي ناراً.

قال جابر: فيهم نزلت {نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ}، قال جابر: (أنفسنا) رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام، و(أبناءنا) الحسن والحسين عليهما السلام، و(نساءنا) فاطمة عليها السلام [1] .

وعن ابن المغازلي في المناقب [2] والحمويني في فرائد السمطين مثله [3] . وروى ذيله ابن صباغ المالكي عن جابر [4] ، وعن الحاكم في مستدركه عن علي بن عيسى ـ وقال: صحيح على شرط مسلم [5] ـ وعن أبي داود الطباليسي عن شعبة الشعبي [6] .

(ومنها) ما روى مسلم في صحيحه عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: ما يمنعك أن تسبّ أبا تراب؟ قال: أما ما ذكرت فثلاث قالهن له رسول الله صلى الله عليه وآله فلن أسبّه، لأن يكون لي واحدة منهن أحب إلي من حمر النعم، سمعت رسول الله يقول حين خلّفه في بعض مغازيه، فقال له علي عليه السلام: يا رسول خلفتني مع النساء

---

(١) غاية المرام: ص ٣٠١، ح٧.
(٢) غاية المرام: ص ٣٠٠، ح٤.
(٣) غاية المرام: ص ٣٠١، ح١٠.
(٤) غاية المرام: ص ٣٠٣، ح١٧.
(٥) غاية المرام، ص ٣٠٣، ح ١٨.
(٦) غاية المرام، ص ٣٠٣، ح١٩.

والصبيان؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي. وسمعته يقول يوم خيبر: لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. قال: فتطاولنا لها، فقال: ادعوا لي علياً، فأتى به أرمد العين، فبصق في عينه ودفع الراية إليه.

ففتح الله على يده. ولَمّا نزلت هذه الآية {فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ}[1] دعا رسول الله صلى الله عليه وآله علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي[2].

ورواه أبو المؤيد الموفق بن أحمد في كتاب(فضائل علي عليه السلام)[3] وابن صباغ المالكي في (الفصول المهمة)[4].

(ومنها) ما روى علي بن ابراهيم في تفسيره عن أبي عبد الله عليه السلام أنّ نصارى نجران لَمّا وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وكان سيدهم(الاهثم) و(العاقب) و(السيد) وحضرت صلاتهم، فأقبلوا يضربون الناقوس وصلّوا، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله: يا رسول الله، هذا في مسجدك؟ فقال: دعوهم. فلما فرغوا دنوا من رسول الله(ص) فقالوا له: إلى ما تدعونا؟ فقال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّي رسول الله، وأن عيسى عبد مخلوق يأكل ويشرب ويحدث. فقالوا: من أبوه؟ فنزل الوحي على رسول الله(ص) فقال: قل لهم: ما تقولون في آدم؟ أكان عبداً مخلوقاً يأكل ويشرب ويحدث وينكح؟ فسألهم النبي صلى الله عليه وآله فقالوا: نعم. فقال: فمن أبوه؟ فبهتوا، فأنزل الله {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ـ إلى قوله ـ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ}[5].

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: فباهلوني، فإن كنت صادقاً نزلت اللعنة عليكم، وإن كنت كاذباً نزلت عليّ. فقالوا: أنصفت، فتواعدوا للمباهلة. فلما رجعوا إلى منازلهم قال رؤوسهم السيد

---

(١) سورة آل عمرا، الآية: ٦١

(٢) غاية المرام: ص ٣٠٠، ح١، ٢.

(٣) غاية المرام: ص ٣٠١، ح٥.

(٤) غاية المرام: ص ٣٠٢، ح١٥.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٥٩ ـ ٦١.

والعاقب والاهثم: إنّ باهلنا بقومه باهلناه، فإنه ليس بنبي، وإن باهلنا بأهل بيته خاصة فلا نباهله، فإنه لا يقدم على أهل بيته إلا وهو صادق.

فلما أصبحوا جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ومعه أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، فقال النصارى: من هؤلاء؟ فقيل لهم: هذا ابن عمه وصيه وختنه علي بن أبي طالب، وهذه ابنته فاطمة، وهذان ابناه الحسن والحسين. ففرقوا، فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله: نعطيك الرضا، فأعفنا من المباهلة. فصالحهم رسول الله(ص) على الجزية وانصرفوا[1].

(ومنها) ما روى الشيخ في أماليه عن الصادق عليه السلام عن أبيه عن جده علي بن الحسين عليهم السلام عن عمه الحسن بن علي عليهما السلام قال: قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وآله حين جحده كفرة أهل الكتاب وحاجّوه: {فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ} فأخرج رسول الله صلى الله عليه وآله من الأنفس معه أبي، ومن البنين أنا وأخي، ومن النساء فاطمة أميّ من الناس جميعاً، فنحن أهله ولحمه ودمه ونفسه، ونحن منه وهو منا[2].

(ومنها) ما روى الشيخ المفيد في الاختصاص عن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام قال: اجتمعت الأمة برّها وفاجرها أنّ حديث النجراني حين دعاه النبي صلى الله عليه وآله إلى المباهلة لم يكن في الكساء إلا النبي(ص) وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، فقال الله تبارك وتعالى {فَمَنْ حَآجَّكَ فيه من بَعْد مَا جَاءكَ منَ الْعلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ} فكان تأويل(ابناءنا) الحسن والحسين، و(نساءنا) فاطمة، و(أنفسنا) علي بن أبي طالب[3].

(ومنها) ما روى الشيخ في مجالسه في حديث مناشدة علي عليه السلام يوم الشورى: فهل فيكم أحد أنزل الله عز وجل فيه وفي زوجته وولديه آية المباهلة، وجعل الله عز وجل نفسه نفس رسول الله صلى الله عليه وآله غيري؟ قالوا: لا[4].

---

(١) غاية المرام: ص ٣٠٣، ب٤، ح١.

(٢) غاية المرام: ص ٣٠٤، ح٣.

(٣) غاية المرام: ص ٣٠٤، ح٤.

(٤) غاية المرام: ص ٣٠٤، ح٥.

(ومنها) ما روى ابن بابويه عن موسى بن جعفر عليهما السلام في حديث له مع الرشيد قال: قول الله عز وجل {فَمَنْ حَآجَّكَ فيه من بَعْد مَا جَاءكَ منَ الْعلْم فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنسَاءنَا وَنسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّه عَلَى الْكَاذبينَ}، ولم يدع أحد أنه أدخل النبي صلى الله عليه وآله تحت الكساء عند المباهلة مع النصارى إلا علي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، فكان تأويل قوله عز وجل(أبناءنا) الحسن والحسين، و(نساءنا) فاطمة، و(أنفسنا) علي بن أبي طالب[1]

وروى هذا المضمون غير واحد من أصحابنا عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

ـ ١٠ ـ

آية التطهير

{إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}[2].

مفردات الآية الكريمة

الإرادة: مفهوم الإرادة واضح، وهي إما تكوينية تتعلق بفعل النفس، وإما تشريعية تتعلق بصدور الفعل عن الغير اختياراً. وإرادة الله التشريعية هي التي تعلقت بأفعال العباد الاختيارية، فهي ممكنة الانفكاك عن المراد، قال تعالى {يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}[3] وقال {وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ}[4]. وإرادة الله التكوينية هي التي تتعلق بأفعاله تعالى بما هي صادرة منه، وهي لا محالة تتلازم مع الفعل ولا ينفك عنها البتة، قال تعالى {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[5].

---

(١) غاية المرام، ص ٣٠٥، ح ٨.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٦

(٥) سورة يس، الآية:٨٢

الرجس: هو الشيء القذر، والحسّي منه واضح، والمعنوي ما يوجب تقذّر النفس كالشرك والإثم وكل معصية.

البيت: ما يحيط به الجدران، والمُسقّف من الدار وغيرها، وهو بيت السكنى، ويطلق على بيت القرابة والنسب، وأهل بيت السكنى من يعيش فيه، كما أنّ أهل بيت القرابة هم قرابة الرجل الأدنون.

مفاد الآية الشريفة

الآية تنص على قصر إرادة الله تعالى في إذهاب الرجس عن أهل البيت وتطهيرهم تطهيراً كاملاً شاملاً. وهذا الحصر إنما هو بالنسبة إلى ما يتعلق بأهل البيت، وإلا فإن لله تعالى إرادات تشريعية وتكوينية غيرها بالضرورة، فالمعنى إنّ إرادة إذهاب الرجس والتطهير مختصّة بهم دون غيرهم، فتصير في قوة أن يقال: يا أهل البيت، أنتم الذين يريد الله أن يذهب عنكم الرجس ويطهركم من الأدناس. فالإرادة هذه تكوينية لا محالة، فإن الإرادة التشريعية للتطهير لا تختص بقوم دون قوم وبيت دون بيت. والإرادة التكوينية منه تعالى لا تنفك عن المراد.

فتطهير أهل البيت من الرجس أمر واقع بإرادة الله تعالى، فهم المعصومون من الذنوب والآثام.

هذا هو الظاهر من نفس الجملة بصرف النظر عما قبلها. أما بالنظر إلى السياق فربما يحتمل أن يكون القصر للقلب، بأن يقال : لَمّا أمر الله تعالى نساء النبي صلى الله عليه وآله بأوامر مؤكدة وشدد في تكليفهن عمّم الخطاب لهنّ ولغيرهنّ من خاصة النبي صلى الله عليه وآله فأعلمهم أنّ تشديد التكليف بالنسبة اليهم ليس لإرادة الحرج عليهم، بل إنما هو لإرادة تطهيرهم؛ حتى يصيروا بذلك أسرة مثالية يقتدى بهم ويسلك سبيلهم.

ويستفاد من هذا التعليل أنّ التكاليف السابقة وإن كانت متوجّهة إلى النساء لكنها لا تختص بهنّ، فإنهنّ إنما صِرْنَ مكلّفات بهذه التكاليف لأجل اختصاصهنّ برسول الله صلى الله عليه وآله، فكل من له اختصاص به يصير مشمولاً لهذه التكاليف وأمثالها. والعلّة تعمّم وتخصّص كما هو واضح ومعروف. وعلى هذا فالإرادة تشريعية والقصر للقلب، والمراد بأهل البيت من يعمّ نساء النبي صلى الله عليه وآله أيضاً، وضمير الجمع المذكر للتغليب.

إلاّ أنّ هذا الاحتمال بعيد، بعد أن كان هذا الخطاب بخصوصه متّصفاً بهذا التغليب المذكور دون غيره من الخطابات السابقة واللاحقة رغم أنها جميعاً تحوي نكتة التغليب.

ولهذا، فإن هذه الجملة: إما كلام جيء به استطراداً لغرض خاص كما في قوله تعالى: {يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ}[1]، ولعل هذا الغرض الخاص هو بيان مقام أهل البيت الذي يختلف عن شأن الأزواج. وأما أنّ هذه الجملة آية مستقلة في نزولها وضعت هنا بأمر النبي صلى الله عليه وآله لمصلحة خفيّة ربما كانت الاحتياط لحفظ الآية من التحريف، ذلك أنّ القرآن الكريم وإن ضمن الله حفظه من التحريف إلاّ أنّ ذلك لا ينافي أن يكون الضمان بأسبابه وقد يكون هذا أحد الأسباب.

وهذا ـ طبعاً ـ إذا قلنا أنّ ترتيب القرآن بهذا الشكل كان بأمره صلى الله عليه وآله، أما بناءً على عدم كونه بأمره فلا تعقيد في البيان.

وعلى أي حال، فإن الالتزام بمثل هذا السياق التزام بما لا يلزم، وقد مرّ نظيره في قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ..}[2] خصوصاً إذا لاحظنا ما ورد في شأن نزول هذه الآية. فإن الروايات متظافرة على نزولها بشكل مستقل، وليس فيها ـ حتى في الضعاف منها ـ ما يدل على نزولها ضمن الآيات السابقة، كما سنشير اليه انشاء الله تعالى.

ومع وجود هذا العدد الكبير من الروايات التي رواها الفريقان، فلا معنى لتصوّر معارضة هذا السياق لها ـ إذا قلنا بأنه مما يقبله العرف ـ فضلاً عن أن يُدّعى أنه يرجّح على دلالتها.

وروايات نزولها في أهل البيت المعينين دون غيرهم جمّة جداً تربو على سبعين حديثاً من طرق الفريقين، وإذا لم يكن مثل هذه الروايات معتمداً عليها فبأي حديث بعده يؤمنون؟!

وهذه الروايات التي روتها الشيعة بطرقهم عن أمير المؤمنين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وعلي بن موسى الرضا عليهم السلام وعن أم سلمة وأبي ذر وأبي ليلى وأبي الأسود الدؤلي وعمر بن ميمون الأودي وسعد بن أبي وقاص، وروتها السنة بأسانيدهم عن أم سلمة وعائشة وأبي سعيد الخدري وسعد ووائلة بن الاصقع وأبي الحمراء وابن عباس وثوبان مولى النبي صلى الله عليه وآله وعبد الله بن جعفر وعلي بن أبي طالب والحسن بن علي عليهما السلام، كلها تدل على أنّ الآية نزلت في الخمسة الطيبة: رسول الله وابن عمه علي وبنته فاطمة وسبطيه الحسنين عليهم السلام، وهم المرادون بأهل البيت دون غيرهم، واليك نماذج منها:

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٩.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

١ـ روى عبد الله بن أحمد بن حنبل في مسنده عن أبيه عن شداد أبي عمار، قال: دخلت على وائلة بن الاصقع وعنده قوم فذكروا علياً، فلما قاموا قال: ألا اخبرك بما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وآله؟

قلت: بلى. قال: أتيت فاطمة ـ رضي الله تعالى عنها ـ أسألها عن علي، قالت: توجّه إلى رسول صلى الله عليه وآله. فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله (ص) ومعه علي وحسن وحسين ـ رضي الله تعالى عنهم ـ آخذاً كل (واحد) منهما بيده حتى دخل، فأدنى علياً وفاطمة فأجلسهما بين يديه، وأجلس حسناً وحسيناً كل واحد منهما على فخذه، ثم لفّ عليهم ثوبه ـ أو قال: كساءاً ـ ثم تلا هذه الآية {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}[1] وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، وأهل بيتي أحق[2].

٢ ـ روى عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه بسنده عن شهر بن حوشب، قال: سمعت أم سلمة زوجة النبي صلى الله عليه وآله حين جاء نعي الحسين بن علي لعنت أهل العراق فقالت: قتلوه، قتلهم الله ، غروه وأذلّوه لعنهم الله. فإنيّ رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله(وقد) جاءته فاطمة غدية ببرمة قد صنعت فيها عصيدة تحملها في طبق لها حتى وضعتها بين يديه، فقال لها: أين ابن عمك؟ قالت: هو في البيت.

قال: فاذهبي فادعيه وائتيني بابنيه. قالت: فجاءت تقود ابنيهما، كل واحد منهما بيد، وعلي يمشي في أثرها، حتى دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وآله فأجلسهما في حجره، وجلس علي عن يمينه، وجلست فاطمة عن يساره.

قالت أم سلمة: فاجتذب من تحتي كساءاً خيبرياً كان بساطاً لنا على المنامة[3] في المدينة، فلفّه رسول الله[4] صلى الله عليه وآله(عليهم جميعاً فأخذ بشماله) طرفي الكساء، وألوى بيده اليمنى إلى ربّه عزوجل وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً[5].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣

(٢) مسند أحمد، ج٤، ص ١٠٧. غاية المرام: ص ٢٨٧، ح١.

(٣) في غاية المرام: على طبانة.

(٤) في غاية المرام: فلفه النبي(ص) وأخذ طرفي الكساء.

(٥) في مسند أحمد كررت هذه العبارة ثلاثاً.

قلت: يا رسول الله، ألست من أهلك؟ قال: بلى، فادخلي في الكساء (قالت: فدخلت في الكساء) بعد ما قضى دعاءه لابن عمه علي وابنيه وابنته فاطمة ـ رضي الله عنهم[1].

٣ـ عن الثعلبي في تفسيره بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى عليه وآله: نزلت هذه الآية فيّ وفي علي وفي حسن وحسين وفاطمة {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}[2].

٤ـ عن الثعلبي أيضاً بإسناده عن العوام بن حوشب قال: حدثني ابن عم لي من بني الحرث بن تيم الله يقال له مجمع، قال: دخلت مع أمي على عائشة، فسألتها أمي قالت: رأيت خروجك يوم الجمل.

قالت: إنه كان هذا من الله تعالى. فسألتها عن علي، فقالت: سألتني عن أحب الناس كان إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، لقد رأيت علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً وقد جمع رسول الله (ص) لفوف عليهم ثم قال: اللهم هؤلاء بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. قالت: قلت: يا رسول الله، أنا من اهلك؟ قال: تنحّي فإنك إلى خير[3].

٥ـ روى الحميدي في المتفق عليه من الصحيحين عن البخاري ومسلم من مسند عائشة عن مصعب بن شيبة عن صفية بنت شيبة عن عائشة قالت: خرج النبي صلى الله عليه وآله ذات غداة وعليه مرط مرجل من شعر اسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فأدخله، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}[4].

٦ـ روى مسلم في صحيحه بسنده عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ألا وأني تارك فيكم ثقلين: أحدهما كتاب الله عز وجل، هو حبل الله مَنْ اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالة، وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي.

---

(١) مسند أحمد: ج٦، ص ٢٩٨. غاية المرام: ص ٢٨٨، ح٨.

(٢) غاية المرام: ص ٢٨٨، ح١٥.

(٣) غاية المرام: ص ٢٨٩، ح ١٧.

(٤) غاية المرام: ص ٢٨٩، ح ٢٢.

فقلنا: مَنْ أهل بيته؟ نساؤه؟ قال: لا أيم الله، إنّ المرأة تكون مع الرجل العصر ثم الدهر ثم يطلّقها فترجع إلى أهلها وقومها، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده[1].

٧ـ روى موفق بن أحمد الخوارزمي في كتابه (فضائل أمير المؤمنين) عن أبي سعيد الخدري أنه قال: لَمّا نزل قوله تعالى: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ}[2] كان رسول الله صلى الله عليه وآله يأتي باب فاطمة وعلي تسعة أشهر كل صلاة، فيقول: الصلاة، يرحمكم الله، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً)[3].

٨ـ روى الحموينى في كتاب فرائد السمطين عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وآله قال: أجلس رسول الله (ص) الحسن والحسين على فخذيه وفاطمة في حجره واعتنق علياً ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي[4].

٩ ـ روى الحموينى أيضاً عن اسماعيل بن عبد الله بن جعفر عن أبيه قال: لما نظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الرحمة هابطة من السماء قال: من يدعو؟ مرتين، قالت زينب: أنا يا رسول الله، فقال لي: ادعي لي علياً وفاطمة والحسن والحسين. قال: فجعل حسناً عن يمناه وحسيناً عن يسراه وعلياً وفاطمة وجاهه، ثم غشاهم كساءاً خيبيرياً.

ثم قال: اللهم إنّ لكل نبي أهل بيت، وهؤلاء أهلي. فأنزل الله عز وجل {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}.

فقالت زينب: يا رسول الله، لا أدخل معك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: مكانك، فإنك إلى خير إنشاء الله تعالى[5].

١٠ ـ روى ابن صباغ المالكي في كتاب (الفصول المهمة) عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وآله في بيتها يوماً، فأتته فاطمة ببرمة فيها عصيدة، فدخلت بها

---

(١) غاية المرام: ص ٢٩٠، ح ٢٧. وقريب منه ما رواه الحموينى عن زيد بن ارقم وعن الحسن بن علي (ع) فراجع الرقم (٣٣) و (٣٤) و (٣٥).

(٢) سورة طه، الآية: ١٣٢.

(٣) غاية المرام: ص ٢٩٠، ح٢٩.

(٤) غاية المرام: ص ٢٩٠، ٣١.

(٥) غاية المرام: ص ٢٩٠، ح ٣٢.

عليه، فقال: لها ادعي لي زوجك وابنيك. فجاء علي والحسن والحسين فدخلوا فجلسوا يأكلون، والنبي (ص) جالس على دكة تحت كساء خيبري، قالت: وأنا في الحجرة قريباً منهم. فأخذ النبي (ص) الكساء فغشاهم به ثم قال: اللهم أهل بيتي وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

قالت: فأدخلت رأسي البيت، قلت: وأنا معكم يا رسول الله؟ قال: إنك إلى خير. فأنزل الله: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}[1].

وفي معناها روايات كثيرة أخرى تدل على عدم دخول الأزواج في أهل البيت واختصاص الآية بالخمسة الطيبة، وقد صرّح مشايخ القوم بصحة غير واحدة منها.

لأهل البيت عليهم السلام، كعكرمة مولى ابن العباس ومن يحذو حذوه، أنّ الآية نزلت في أزواج النبي صلى الله عليه وآله. وهذا الرأي ـ مضافاً إلى أنه غير مستند إلى كلام رسول الله صلى الله عليه وآله ـ اجتهاد في مقابل النص من رجال معروفين بالكذب والإختلاق. فارجع إلى ميزان الاعتدال وغيره من كتب رجال القوم حتى تعرف أحوال هؤلاء وموقفهم من أمير المؤمنين وأهل بيت النبي(ص)، وتعرف قيمة الرأي المنقول عنهم. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

* * *

وفي الختام نذكر بعض ما ورد من طرق أصحابنا الإمامية أيضاً:

(فمنها) ما رواه محمد بن يعقوب بسنده عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ منكُمْ}[2] ؟ فقال: نزلت في علي بن أبي طالب والحسن والحسين عليهم السلام ـ إلى أن قال ـ لكن الله عز وجل أنزله في كتابه تصديقاً لنبيه صلى الله عليه وآله {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}، فكان علي والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام، فأدخلهم رسول الله (ص) تحت الكساء في بيت أم سلمة ثم قال: اللهم إنّ لكل نبي أهلاً وثقلاً وهؤلاء أهل بيتي وثقلي. فقالت أم سلمة: ألستُ من أهلك؟ فقال: إنك إلى خير، ولكن هؤلاء أهل بيتي وثقلي ـ الحديث[3]

(١) غاية المرام: ص ٢٩١، ح ٣٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٣) الكافي: ج١، ص ٢٨٦ـ ٢٨٧.

وعن ابن بابويه بسنده عن موسى الهاشمي بسر من رأى، قال: حدثني أبي عن أبيه عن أبائه عن الحسن بن علي عن علي عليهم السلام قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله في بيت أم سلمة وقد نزلت عليه هذه الآية {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا علي، هذه الآية فيك وفي سبطيّ والأئمة من ولدك. فقلت: يا رسول الله، وكم الأئمة بعدك؟ قال: أنت يا علي، ثم الحسن والحسين، وبعد الحسين علي ابنه، وبعد علي محمد ابنه، وبعد محمد جعفر ابنه، وبعد جعفر موسى ابنه، وبعد موسى علي ابنه، وبعد علي محمد ابنه، وبعد محمد علي ابنه، وبعد علي الحسن ابنه، والحجة من ولد الحسن. هكذا أسماؤهم مكتوبة على ساق العرش، فسألت الله تعالى عن ذلك فقال:(يا محمد، هذه الأئمة بعدك، مطهرون معصومون، وأعداؤهم ملعونون)[1].

ـ ١١ ـ

آية المودة

{قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْه أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاته إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}[2]

الأجر: ما يعود إلى العامل من ثواب العمل، سواء كان دنيوياً أو أخروياً.

المودة: المحبة المستتبعة للمراعاة والتعاهد، ولعلها لاشتمالها على ذلك لا تستعمل في محبّة العباد لله تعالى.

والقربى: القرابة في النسب.

أجر النبي(ص)

عندما نتابع دعوة الأنبياء الكرام للناس ومنطقهم في القرآن الكريم نجدهم يعلنون أنهم جاؤوا لإعلاء كلمة الحق والتوحيد، وهم أزاء ذلك لا يطلبون أجراً، فأجرهم على الله تعالى. وذلك ما

(١) غاية المرام: ص ٢٩٣، ح٦.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٣ ـ ٢٤.

نلاحظه مثل في سورة الشعراء على لسان عدة منهم إذ يعلنون {وَمَا أَسْـأَلُكُمْ عَلَيْـهِ مِـنْ أَجْـرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} الشعراء: ١٠٩ ـ ١٢٧ ـ ١٤٥ ـ ١٦٨ ـ ١٨٠. وكان ذلك المنطق ينبع من أدب التوحيد الخاص الذي أدّب الله به أنبياءه العظام ليكونـوا مثـال العمـل فـي سـبيل الله لا يريدون جزاءاً ولا شكوراً.

وإنّ من المناسب جداً أن يكون الموجَر هو المرسَل لا المرسَل اليه، ولا يقاس أجـر الله علـى أجر العباد.

إذاً، فما معنى أن نجد النبي صلى الله عليه وآله سواء من خلال آية أو رواية يسأل أمته أجـراً؟ وهل أنّ هذا يخالف ـ والعياذ بالله ـ سنّة الأنبياء؟ أو لا يتصوّر تهافت بين هذا المعنى وقوله فـي آية أخرى {إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّه}[1] ؟ أوليس قوله {إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّه} يأبى أي اسـتثناء أو تخصيص، فلا يمكن أن يُدّعى فيه ذلك؟

إنّ الجواب الطبيعي الواضح على هذه التساؤلات هو: أنّ هذا الأجر المطلوب فـي هـذه الآيـة الكريمة هو في الواقع من أروع ما يعود على الأمة بالخير، ويرتبط بمسيرتها ومـستقبلها وقيادتهـا، حيث يشدّها الشدّ العاطفي الواعي إلى القيادة مقوّياً بذلك الشدّ العقائدي بها، وإذا اقترنت العقيدة بالعاطفة المبنية على أساسها أمكن ضمان قيام القائد بمهامه التاريخية الكبرى الملقاة علـى عاتقـه في مجال تربية الإنسانية ككل وهدايتها إلى شواطئ الكمال.

فهذا الأجر المسؤول وهو في الواقع تعليم اجتماعي رائع لـصالح الأمـة نفـسها، ولـيس أجـراً شخصياً للرسول صلى الله عليه وآله وبعد أن كان أشد الناس إخلاصاً للحقيقة، وبعد أن كان القرآن يعلن:

{وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ}[2] {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ}[3].

---

(١) سورة يونس، الآية: ٧٢.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٤

(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٠٩، ص: ٨٦.

وقد أوضح القرآن هذه الحقيقة في قوله تعالى: ـ على لسان نبيه ـ {مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّه}[1]. وكذا يشير إليه قوله تعالى: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا}[2].

أما تسمية هذه المودة أجراً للرسول صلى الله عليه وآله فقد يكون مجرد تنزيل وادّعاء؛ لأنه يمسّ الرسول(ص) بعد أن كان في الحقيقة راجعاً إلى مصلحة الأمة. والذي يصحح هذه التسمية أمران:

الأول: أنّ هؤلاء هم السبيل إلى الله تعالى.

الثاني: أنّ مودّتهم ـ كما مر ـ لها الأثر الكبير في ربط الأمة بقيادتها الحكيمة لتحقيق الأهداف التاريخية للإسلام.

ولعل القرآن الكريم استغل الربط العاطفي بالنبي صلى الله عليه وآله لينسب المودة في القربى اليه، محققاً بالتالي غرضه المنشود.

هذا ما يستفاد من الآية الكريمة.

أما الروايات المتواترة فهي توضّح مَنْ هم هؤلاء وتؤكّد أنهم علي وفاطمة وابناهما عليهم السلام. لعل هذا بلغ من الوضوح مبلغ الضرورة عند الشيعة، كما ذهب اليه جمهور علماء السنة وقطع به أكابرهم. وندر أن نجد من يخالف هذا التفسير كعكرمة(الكذاب) وأمثاله ممن كان دينهم تأويل الآيات النازلة في فضل أهل البيت عليهم السلام عداوةً وبغضاً، وجرّها إلى تفسيرات تخالف القرآن والروايات، لا لشيء إلا لإشباع هوى رخيص وحقد أعمى، ولذا فإنه لا يعتنى بمخالفتهم.

بعض الأقاويل الضعيفة في تفسير هذه الآية

ونحن نتعرض لذكرها ليتّضح ما أكّدناه سابقاً من نشوئها عن عصبية أو جهل مقيت:

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٤٧.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٥٥

فقد قيل: إنّ الآية تأمره صلى الله عليه وآله أن يقول للمشركين ذلك، أي يقول لهم: لا أسألكم عليه من أجر إلا أن تحفظوا قرابتي منكم وتصلوا الرحم التي بيني وبينكم.

وهو رأي لا يقبله الذوق السليم، وكيف يصحّ للحكيم أن يطلب الأجر على الرسالة ممن يكفر بها؟!

وقيل: إنّ المراد هو ملاحظة القربى من الله تعالى، فكان الرسول صلى الله عليه وآله يطلب منهم أن يؤدّوا القربى من الله بالأعمال الصالحة!

وربما كان هذا أسخف مما قبله، فهو تأويل وتحريف تأباه اللغة أيضاً، فلم نجدها استعملت لفظة(القربى) إلا في القرابة الرحمية.

وقيل: إنها تطلب من المسلمين أن يؤدّوا قرابتهم ويصلوا أرحامهم.

وهو أيضاً رأي مردود ليس فيه إلا التأويل، ولا يقصد إلا التمويه الذي يشمئز منه الذوق السليم. وإلا فما معنى جعل حكم جزئي من الأحكام لا يرتبط برسول الله صلى الله عليه وآله إلا كارتباط باقي الأحكام به، جعله أجراً للرسالة؟ وهل هناك مصحح لهذا الجعل؟ أم هل توافق عليه قواعد البلاغة؟

وقيل: إنه لو أراد الله تعالى من الآية الشريفة مودّة القربى لكان اللازم أن يقول(إلا المودة القربى) أو (إلا المودة للقربى). وعليه فالآتيان بلفظ(في) شاهد على إرادة غير المعنى المذكور.

ويكفي في جواب هذا المعنى ما قاله الزمخشري من أنه عبّر بـ(في) ولم يعبّر باللام تأكيداً؛ لأن الظرفية أبلغ وآكد للمودة، فيكون تقديره: إلا المودة ثابتة في القربى.

وقيل: إن الآية مكية؛ لأنها في سورة الشورى مع أنّ الحسنين ولدا في المدينة.

وهو إشكال ضعيف أيضاً، فإنه قد أكّد غير واحد من أئمة هذا الفن نزول الآية في المدينة. على أننا لو سلّمنا كونها مكية فما المانع في ذلك؟ إنها نظير غيرها من الآيات الكريمة التي سبقت لبيان قضية حقيقية لا خارجية. فهي تصبح فعلية إذا وجد من تنطبق عليه.

وأخيراً:

فإنّا لا ندري سرّ هذا الإصرار واللجوء إلى التأويلات الباطلة بعد ورود النص المتواتر والإجماع المنقول من الفريقين، ولا يسعنا إزاء ذلك إلا التمسك بها والسير على هدى الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.

واليك نماذج منها:

فمن طريق السنة جاءت روايات منها:

ما عن مسند أحمد بن حنبل عن سعيد بن جبير عن ابن العباس قال: لَمّا نزل {قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}[1] قالوا: يا رسول الله، من قرابتك الذين وجبت علينا مودّتهم؟ قال: علي وفاطمة وابناهما[2].

وقريب منها ما روي عن صحيح البخاري وصحيح مسلم وتفسير الثعلبي بسندين، وعن الجمع بين الصحاح الستة بسندين، وعن ابراهيم بن محمد الحموييني، وعن موفق بن أحمد الخوارزمي، وعن أبي نعيم الاصبهاني صاحب حلية الأولياء، وعن المالكي بسندين، وعن ابن المغازلي في كتاب المناقب، غالبهم عن ابن عباس، وبعضهم عن سعيد ابن جبير، وبعضهم عن مقاتل والكعبي.

وعن تفسير الثعلبي عن أبي الديلم قال: لَمّا جيء بعلي بن الحسين ـ صلوات الله عليه ـ أسيراً قائماً على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذي قتلكم واستأصل شأفتكم وقطع قرن الفتنة. فقال علي بن الحسين عليه السلام: اقرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: قرأت الحم؟ قال: قرأت القرآن ولم أقرأ الحم؟! قال: قرأت: {قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} قال: لأنتم هم؟ قال: نعم[3].

وروى محمد بن جرير برجاله في كتاب المناقب أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: اخرج فناد: ألا من ظلم اجيراً أُجْرَته فعليه لعنة الله، ألا من تولّى غير مواليه فعليه لعنة الله، ألا من سبّ أبويه فعليه لعنة الله. فنادى بذلك، فدخل عمر وجماعة على النبي صلى الله عليه وآله

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

(٢) غاية المرام: ص ٣٠٦، ح١.

(٣) غاية المرام: ص٣٠٦، ح٥.

وقالوا: هل من تفسير لما نادى؟ قال: نعم، إنّ الله يقول {قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}فمن ظلمنا فعليه لعنة الله، ويقول {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ}[1] ومن كنت مولاه فعلي مولاه، فمن والى غيره وغير ذرّيته فعليه لعنة الله، وأشهدكم أنا وعلي ابوا المؤمنين، فمن سبّ أحدنا فعليه لعنة الله. فلما خرجوا قال عمر: يا أصحاب محمد، ما أكد النبي لعلي بغدير خم ولا غيره أشد من تأكيده في يومنا هذا.

قال خباب بن الأرت: كان ذلك قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله بتسعة عشر يوماً[2].

وروى علي بن الحسين بن محمد الاصبهاني في كتاب(مقاتل الطالبين) أنّ الحسن بن علي عليهما السلام قال في خطبة له بعد موت أبيه قال: أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ولم يعرفني فأنا الحسن بن محمد صلى الله عليه وآله، أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه، وأنا ابن السراج المنير، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، والذين افترض الله مودّتهم في كتابه إذ يقول: {وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا}[3]، فالحسنة مودّتنا أهل البيت.[4]

(ومما) رواه أصحابنا الإمامية ما رواه الكليني عن ابي جعفر الباقر عليه السلام في قوله تعالى: {قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} قال: هم الأئمة عليهم السلام[5].

(ومنها) ما رواه الكليني أيضاً عن اسماعيل بن عبد الخالق قال: سمعت ابا عبد الله عليه السلام يقول لأبي جعفر الأحول وأنا أسمع: فقال: أتيت البصرة؟ قال: نعم. فقال: كيف رأيت مصارع الناس إلى هذا الأمر ودخولهم فيه؟ فقال: والله إنهم لقليل. فقال عليه السلام: عليك بالأحداث، فإنهم أسرع إلى كل خير، ثم قال: ما يقول أهل البصرة في هذه الآية {قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}؟ قلت: جعلت فداك، إنهم يقولون إنهم أقارب رسول الله صلى الله عليه وآله.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦.

(٢) غاية المرام: ص ٣٠٧، ح٩.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

(٤) مقاتل الطالبين: ج١، ص ٣٤(ط بيروت).

(٥) الكافي: ج١، ص ٤١٣، ح٧.

فقال: كذبوا إنما نزلت فينا خاصة في أهل البيت: في علي وفاطمة والحسن والحسين، اصحاب الكساء.[1]

وروى عبد الله بن جعفر الحميري مثله في قرب الاسناد[2].

(ومنها) ما رواه ابن بابويه عن علي بن الحسين عليهما السلام قال لرجل: أما قرأت كتاب الله عزوجل؟ قال: نعم. قال: أما قرأت هذه الآية {قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}؟ قال: بلى.

قال: فنحن اولئك[3]

(ومنها) ما رواه البرقي في المحاسن عن عبد الله بن عجلان، قال سألت ابا جعفر عليه السلام عن قول الله {قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}. قال: هم الأئمة الذين لا يأكلون الصدقة ولا تحلّ لهم.[4]

وقد روى أمثالها المفيد في الاختصاص والطبرسي وعلي بن ابراهيم القمي في تفسيره والشيخ في أماليه وسعد بن عبد الله في بصائر الدرجات ومحمد بن العباس بن ماهيار في تفسيره وغيرهم.

ـ ١٢ ـ

آية الشهادة

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[5]

(١) روضة الكافي(ج٨) ص ٩٣، ح٦٦.
(٢) غاية المرام: ص ٣٠٧، ح٣.
(٣) غاية المرام: ص ٣٠٩، ح١٠.
(٤) غاية المرام: ص ٣٠٩، ح١٣.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

كذلك

قيل: إنّ الظاهر بملاحظة ما سبق من الكلام في شأن القبلة أنّ المراد من قوله (وكـذلك..) أنـه كتحويل القبلة لغاية الهداية إلى صراط مستقيم جعلناكم أمة وسطاً لتحقق الشهادة. لكن لا يبعد أن تكون الواو للاستئناف، و(كذلك) كلمة يراد بها تثبيت الخبر على عكس ما تفيده لفظة (كلام).

قال الخفاجي في (شرح الشفا بحقوق المصطفى) بعد ما نقل عـن الكـشّاف وشـرّاحه كلامـاً طويلاً في معنى (كذلك): أقول: لم أزل أبحث عن هذا كل مَنْ ناقشته من الفضلاء، فلم أظفر بمـا يثلج الصدر، فتصفّحت الدفاتر، وراجعت خزائن الضمائر، فرأيت في شرح القـصائد الطـوال فـي شرح قول زهير:

كذلك خيمهم ولكل قوم إذا مسّتهم الضراء خيم

نقلاً عن الجرجاني أنه قال: لفـظ (كـذلك) ممـا يكـون تثبيتـاً لخبـر مقـدم أو متـأخر، فهـي نقيض(كلا) لأنها تنفي[1].

الوسط

الوسط: ما له الطرفان أو الاطراف، ويستعمل بمعنى العدل؛ لأن الوسط هو أعدل ما يكون مـن الشيء وأبعده من الانحراف. وبعبارة أخرى: لأن العدل متوسط بين التفريط والإفراط. ويقرب منـه استعماله في معنى الخيار. وكيف كان فهو صفة للشيء بالقياس إلى الغير.

الشهادة

الشهادة والشهود: الحضور مع المشاهدة بالصبر أو بالبصيرة.

يقال: شهد المجلس: حضره واطّلع عليه. والمستفاد من موارد استعمال هذه المادة اشراب معنى التطلّع والإشراف فيها في كثير من الموارد، فيفيد معنى الرقابة والنظارة، فيستعمل مع لفظة (علـى)

---

(١) شرح الشفا: ج ١، ص ٢٠٩.

الاستعلائية. ومنه ما تكرر في القرآن الكريم من اطلاق الشهيد على الله تعالى، مثل قوله سبحانه {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[1].

الأمة الوسط

وغير خفي على الناظر في الآية المبحوث عنها في وصف الأمة بالوسيطة تكريم لهم وتعظيم لشأنهم ومنّة من الله سبحانه عليهم، وأنّ غاية هذا الجعل كونهم شهداء على الناس، وكون الرسول عليهم شهيداً.

فالشهادة المذكورة علّة غائية للجعل المذكور، متفرّع عليه نحو تفرّع الغاية على ذيها.

هذا كله مما لا ريب فيه، وإنما الكلام في ما هو المراد من كونهم وسطاً وفي ارتباط الشهادة به.

فقد قيل: إنّ المراد هو كون هذه الأمة على النهج الأوسط المعتدل، فلا إفراط ولا تفريط.

والى هذا القول يرجع ما قيل من أنّ الله سبحانه أقام في دينه توازناً بين متطلبات الروح ومتطلبات البدن تحقيقاً للواقعية الكاملة.

ولذا، فإن هذه الأمة تشكّل النموذج الكامل الذي يشهد على المادّيين المفرطين بأنهم عطّلوا الجانب المعنوي الراقي في الوجود الإنساني وأخلدوا إلى البهيمية، كما يشهد على أولئك الذين اغرقوا في الجانب الروحي فخرجوا عن صراط الاعتدال وراحوا إلى الرهبنة المقيتة.

وعليه، فتكون هذه الأمة مثلاً أعلى للناس، كما أنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله هو المثال الأكمل لهذه الأمة.

ويقرب من هذا الرأي ما قيل من أنّ هذه الآية تؤدّي ما بيّنته الآية الكريمة الأخرى {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ..}[2] فهذه الأمة المسلمة هي أسمى أمة وأكملها، وهي واسطة العقد بين الأمم.

---

(١) سورة البروج، الآية: ٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

وقيل: إنّ المراد هو جعل هذه الأمة حجة ومناراً للخلق، فهي تبلغ أحكام الإسلام، وتعلم الناس سبيل الكمال، كما أنّ الرسول صلى الله عليه وآله حجة عليها، إذ تأخذ معالم الدين منه (ص) ويأخذ الناس منها هذه المعالم السامية، فتكون وسطاً بينهم وبين (ص)، كما أنه وسط بين الأمة وبين الله تعالى.

وقيل: إنّ هؤلاء المخاطبين جعلوا في حاق الوسط والاعتدال تكويناً؛ ليقوموا بمهمة الاشراف على الناس ومراقبة أعمالهم وأقوالهم، بل والإشراف على مبادئ نيّاتهم، وبذلك يتحمّلون الشهادة ليؤدّوها يوم القيامة.

ومهما كان مبلغ ما قيل أو يقال من الصحة، فإنه من غير المشكوك فيه أنّ وصف (الوسطية) السامي إنما هو للخواص من الأمة دون من ينتحل الإسلام وهو لا يفهم منه إلا لماماً، أو هو أشقى من غير المسلمين، بل قد يكون أشقى الآخرين كما جاء في بعض الروايات.

فإذا وصفت الأمة بأنها (الأمة الوسط) فإن ذلك على أساس وجود من يتّصف بهذا الوصف العالي فيها، وذلك على حد قوله سبحانه وتعالى موجّهاً الخطاب إلى بني إسرائيل {: وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا}[1] وقوله تعالى: {وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}[2] رغم أنّ الملك كان واحداً في كل عصر، وأنّ الأفضلية على العالمين كانت لخصوص فئة منفردة منهم. ومثله قوله تعالى: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ..}[3] رغم أنّ فيهم المنافقين والفاسقين.

الآية الكريمة بعد التأمل فيها وفي ما يناسبها من الآيات تؤكّد على حقيقة قرآنية يتكرر التعبير عنها في الكتاب المجيد، وهي موقف الشهادة يوم القيامة، وتنوع الشهود فيه على أعمال العباد. فهناك الاعضاء والجوارح، والملائكة المكرمون، والأولياء المقربون من النوع الإنساني كالأنبياء والصالحين. فيقول تعالى: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ}[4] ويقول سبحانه: {وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٧.

(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٦٩.

بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاء} [1] ويقول عز وجل {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا * فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا} [2].

فكل هذه الآيات تتحدث عن ذلك الموقف بصراحة، ولا سيّما الآيتين المذكورتين من سورة النساء. إذ نفي الظلم أولاً عن الله سبحانه في مجال الجزاء، ثم فرّع عليه المجيء من كل أمة بشهيد، وإحضار الرسول صلى الله عليه وآله شهيداً مما يكاد يكون صريحاً في الحديث عن ذلك الموقف العظيم.

وأصرح من ذلك قوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ} [3] وقوله تعالى: في عيسى بن مريم {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} [4].

فإذا تمّ هذا قلنا: إنّ من الطبيعي أن لا تتحقق الشهادة إلا بالحضور والإشراف على المشهود عليه ثم أداء الواقع بدقة. كما أنّ الشهادة ليست على مجرد شكل العمل وصورته الظاهرة المتقضية، وإنما تتكون أيضاً على ما هو السر في كون العمل طاعة أو عصياناً، أي النية والسريرة ونوعها. فلابد إذن من أن يكون مثل هذا الشاهد واقفاً على الضمائر، ومطّلعاً على السرائر في النشأة الأولى، لكي تتحقق مقوّمات الشهادة يوم القيامة وفي النشأة الأخرى.

وهذا المعنى يظهر من قوله سبحانه حكاية عن عيسى بن مريم عليه السلام وجوابه لله سبحانه في ذلك الموقف العظيم يوم الحساب {وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [5] ذلك أن اقترن شهادة المسيح على أمته ورقابته عليهم بشهادة الله ورقابته عليهم يدل على مدى التشابه بينهما، رغم أنّ شهادة المسيح شعاع من تلك الشهادة. وهذا لا يتمّ إلا بالإشراف والاطلاع على القلوب.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٨٩.

(٢) سورة النساء، ، الآية: ٤٠ ـ ٤١.

(٣) سورة هود، الآية: ١٨.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٥٩.

(٥) سورة المائدة، الآية: ١١٧.

وربما يشير إلى هذا قوله تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}[1] إذ جعلت رؤية الرسول والمؤمنين لأعمال العباد إلى جنب رؤية الله تعالى مما يشير إلى نوع مسانخة بينهما.

وبهذا تبيّن أنّ المراد من الشهادة في الآية المبحوث عنها هي الشهادة على الأعمال، وأنّ هؤلاء الخواص من الأمة جعلوا وسطاً ومنحوا هذه الكرامة؛ لارتباط هذه الشهادة بهذا الوصف، سواء كان المراد بالوسطية كونهم واسطة بين الرسول والناس، أو كونهم عدولاً غير مائلين إلى الافراط والتفريط فهم مثل عَلْيا للناس، أو غير ذلك.

ويقرب من هذه الآية في الدلالة قوله تعالى: {هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ}[2] وسيجيء البحث عنها إن شاء الله تعالى.

فخلاصة الكلام: إنّ في الأمة المسلمة طائفة معيّنة فازت بمقام الشهادة على الأعمال، وأنّ هذه الطائفة هي من ذرية ابراهيم عليه السلام على ما يقتضيه انطباق آية الاجتباء الأخيرة على آية الشهادة.

وقد وردت روايات من الفريقين تؤيّد بل تدل على ما استفدناه من نفس الآيات من كون الشهادة هي الشهادة على الأعمال:

فعن طريق القوم ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يُدعى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب. فيقول: هل بلّغت؟ فيقول: نعم.

فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد صلى الله عليه وآله وأمته. فيشهدون أنه قد بلّغ {وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[3]، فذلك قوله {: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}[1] والوسط: العدل[2].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

وفي الكشاف: روي أنّ الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالب الله الأنبياء بالبيّنة، ويقرب منه ما في الدر المنثور وروح المعاني ومجمع البيان.

وعن طريقنا روى الكليني عن بريد العجلي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزوجل: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} قال: نحن الأمة الوسطى، ونحن شهداء الله على خلقه وحججه في أرضه.

قلت: قول الله عزوجل {مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ}[٣] ؟ قال: إيّانا عنى خاصة {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ}[٤] في الكتب التي مضت(وفي هذا) القرآن {لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ}[٥] فرسول الله صلى الله عليه وآله الشهيد علينا بما بلّغنا عن الله عزوجل، ونحن الشهداء على الناس، فمن صدّق صدّقناه يوم القيامة، ومن كذب كذّبناه يوم القيامة[٦] .

وقد عقد في الكافي باباً عنوانه(في أن الأئمة شهداء الله عزوجل على خلقه) وكذا في البحار[٧] ، والمفيد في الاختصاص.

وفي تفسير العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال الله تعالى {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}[٨] فإن ظننت أنّ الله عنى بهذه الآية جميع أهل القبلة من الموحّدين، أفترى أنّ من لا يجوز شهادته في الدنيا على صاع تمر يطلب الله شهادته يوم القيامة ويقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية؟! كلا! لم يعنِ الله تعالى مثل هذا من خلقه، يعني: الأمة التي وجبت لها دعوة إبراهيم، وهم الأمة الوسطى، وهم خير أمة أخرجت للناس[٩] .

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٢.

(٢) صحيح البخاري: ج٦.

(٣) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٤) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٥) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٦) الكافي: ج١، ص ١٩٠.

(٧) راجع الجزء (٢٣) من الطبعة الحديثة.

(٨) سورة البقرة، الآية: ١٤٢.

(٩) راجع الجزء(٢٣) من الطبعة الحديثة.

وهذا الصنف من الأخبار وإن كان أضيق مدلولاً من آية الشهادة ـ من جهة ـ حيث إنّ مدلوله نوع من العمل وهو التبليغ لا جميع الأعمال من الطاعات والمعاصي كما هو مدلول الآيات، إلا أنّ دلالته على كون الشهادة هي الشهادة على الأعمال مما لا يقبل الإنكار.

نعم، أخبار عرض الأعمال على رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى الأئمة عليهم السلام الوارد جلّها في تفسير الآية الاتي ذكرها {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}[1] كالنص في علمهم بأعمال العباد. مثل ما رواه في البحار عن البصائر عن يونس عن ابي الحسن الرضا عليه السلام قال: سمعته يقول في الأيام حين ذكر يوم الخميس قال عليه السلام: هو يوم تعرض فيه الأعمال على الله وعلى رسوله وعلى الأئمة عليهم السلام[2].

وفي بعض تلك الروايات أضيف إلى الخميس يوم الاثنين، وفي بعضها كل صباح ومساء.

وهنا لابد وأن ننبّه على ما يبدو من الاختلاف بين ما دلّت عليه آيات الشهادة بل دلّت عليه آية الرؤية أيضاً ـ التي اقترنت فيها رؤيتهم لأعمال الخلق برؤية الله تعالى ـ وبين مدلول تلك الأخبار. فالآيات تدل ظاهراً على إشرافهم المستمر على الأعمال، بل على أسسها ومبادئها النفسية التي تصبغ العمل بالطاعة والعصيان، في حين نجد أنّ الأخبار تُوهِم عدم إشرافهم على الأعمال حين صدورها من الفاعلين حيث عبّرت بالعرض عليهم، فلماذا العرض إذا كانوا مشرفين على الأعمال وعلى مبادئها النفسية؟

إلا أنّ هذا الاختلاف يرتفع بعد التأمل في مراتب العلم والشهود.

ذلك أنّ للعلم مراتب متفاوتة، والتعبير بالعرض تعبير عن بعض مراتبه، ومن هنا يمكن أن نصحح العرض على الله سبحانه وتعالى يوم الخميس، مع أنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

مقتضيات هذا المقام الرفيع.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

(٢) البحار: ج٢٣، ص ٣٤٦.

وإذا استعرضنا جلال هذا المقام الرفيع وما أثبتته آيات الشهادة لهؤلاء الكرام من العلم الحضوري أمكننا أن نتوصّل إلى بعض مقتضيات هذا المقام، وها نحن نذكر بعضها:

الأول: علمهم عليهم السلام بالغيب بسبل تختلف عن سبل غيرهم من الناس، وهو ظاهر.

الثاني: إنهم واسطة الفيض الإلهي المعبّر عنه بـ (الولاية التكوينية) فإن العلم الحضوري هو حضور المعلوم بوجوده الخارجي عند العالم وهذا ـ كما برهن في محله ـ لا ينطبق في المقام إلا على علم العلة بمعنى (ما به) على المعلوم.

ويدل على ذلك روايات، منها ما رواه في الكافي عن مولانا الصادق عليه السلام قال: إنّ الله خلقنا فأحسن خلقنا وصوّرنا فأحسن صورنا، وجعلنا عينه في عباده، ولسانه الناطق في خلقه، ويده المبسوطة على عباده بالرأفة والرحمة، ووجهه الذي يؤتى منه، وبابه الذي يُدلّ عليه، وخزانه في سمائه وأرضه. بنا أثمرت الأشجار، وأينعت الثمار، وجرت الأنهار، وبنا ينزل غيث السماء وينبت عشب الأرض، وبعبادتنا عبد الله، ولولا نحن ما عُبد الله[1].

الثالث: العصمة من الضلال، فإن إطلاق الوسط وعدم تقييده في قوله سبحانه يدل على أنهم في قلب الوسط الحقيقي، ولذا فهم معصومون عن الانحراف والإفراط والتفريط.

على أنّ قوله سبحانه وتعالى: {جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}[2] يدل ـ كما سبق ـ على أنّ الله تعالى قد اصطفاهم من بين الناس، وهو ما نطق عليه قوله تعالى: {هُوَ اجْتَبَاكُمْ}[3]. وقد رأينا القرآن الكريم ينص على اجتباء ثلّة من الأنبياء كإبراهيم ويوسف عليهما السلام، وواضح أنّ الاجتباء يعني اصطفاءهم وجعلهم خالصين من كل ما يدنّس الفطرة ويشوبها بالأكدار، وبذلك يئس ابليس من إغوائهم حيث قال: {قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[4] وقال سبحانه في حق يوسف عليه السلام: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ

(١) الكافي: ج١، ١٤٤، ح٥.

(٢) سورة البقرة،الآية: ١٤٢.

(٣) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٣٩، ٤٠ ص: ٨٣.

وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}[1] وما ظنّك بمن كان الله عزوجل يتولّى أمره ويصرف عنه السوء والفحشاء؟!

الرابع: أنّ هؤلاء الشهداء موجودون في الناس ولو على سبيل البدل والتدريج ما دام السلام إلى يوم القيامة.

روى الكليني ـ قدس سره ـ عن سماعة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في قول الله عزوجل: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا}[2] قال: نزلت في أمة محمد صلى الله عليه وآله خاصة، في كل منهم إمام منّا شاهد عليهم، ومحمد (ص) شاهد علينا[3].

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٤

(٢) سورة النساء، الآية: ٤١.

(٣) الكافي: ج١، ص ١٩٠، ح١.

ـ ١٣ ـ

آية الاجتباء

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}[1].

هاتان الآيتان تنوّهان بالمكانة العظمى التي خصّ بها المسلمون، وهي اجتباء الله إيّاهم وشهادة الرسول عليهم وشهادتهم على الناس.

وتوضّح الآيتان حقيقة هامة تعبّر عن ائتلاف عناصر معيّنة يأخذ بعضها بحجزة بعض في مقام البيان، لتشكّل بالتالي تلك المكانة العظمى. ذلك أنه تعالى بعد أن أمر المؤمنين عموماً بالركوع والسجود ومطلق العبادة وفعل الخيرات والجهاد في الله حق جهاده؛ بيّن لهم منّته عليهم بقوله: {هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا}[2] وقد كانت هذه المنّة العظمى من الاجتباء وما بعده تؤدي بصورة طبيعية إلى شهادة الرسول عليهم وشهادتهم على الناس، حيث يقول تعالى {لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ}[3].

ومن هنا نعلم ـ عند الدقّة والتأمل ـ أنّ الغاية المتوخّاة من هذا الاجتباء هي الشهادة المذكورة، وأنّ المقوّم الأساسي لهذا المقام السامي هو الاجتباء. ولكن ما هي حقيقة ذلك الاجتباء؟ وما ذا يقصد منه في الكتاب العزيز ولا سيّما في هذه الآية؟

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٧ ـ ٧٨.

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٣) سورة الحج، الآية: ٧٨.

قال الراغب في المفردات: (يقال: جبيت الماء في الحوض: جمعته، والحوض الجامع يقال له(جابية). ثم قال: الاجتباء: الجمع على طريق الاصطفاء، قال عز وجل: {فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ}[1] واجتباء الله العبد تخصيصه إيّاه بفيض إلهي.

وقال الزمخشري في أساس البلاغة: هو اجتباه: اختاره، مستعار، لأن من جمع شيئاً لنفسه فقد اختصّه واصطفاه.

وقال أبو البقاء في الكليات: الاجتباء هو أن تأخذ الشيء بالكلية.

ويقرب منه ما قاله الآخرون.

الاجتباء والتسليم

إذا تأملنا في معنى الاجتباء رأينا أنه يستلزم أو يلازم التسليم الكامل لله تعالى، ومنح قيادة النفس وغرائزها التي تميل إلى زخارف الدنيا للهدى الإلهي والتوجيه السماوي، والاتجاه بكل الوجود نحو الله تعالى. وبذلك يمكن اجتباء النفس واجتذابها اليه سبحانه.

ولعله لذلك لم تعطف الآية الكريمة جملة : {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ} على جملة: {هُوَ اجْتَبَاكُمْ}، فهي تعبّر عن كمال الاتصال أو الاتحاد بين الاجتباء والإسلام، نظير قوله تعالى: {أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ*أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ}[2] . أما الوصل بالعطف فإنه لا يلائم الاتحاد بين المعنيين، إذ لابد في الوصل والعطف من تغاير مع مناسبة ـ كما ذكر أهل المعقول نظيره في الحمل.

وعليه، فالإنسان المجتبى هو الإنسان المسلم الذي لا يجد في نفسه حرجاً مما قضى الله وأمر. ومما سبق يظهر أنّ للإسلام والانقياد مراتب، وإنّ هذا الإسلام الملازم للاجتباء والاصطفاء لابد وأن يكون من مراتبه العليا بحكم الامتنان، وأنّ لهذا الإسلام صلة بحياة سيدنا ابراهيم عليه السلام لقوله تعالى: {مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ}. ومن هنا يجب أن نتابع حياة هذا النبي العظيم، وصلته بذلك الإسلام.

---

(١) سورة القلم، الآية: ٥٠.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٣١ ـ ١٣٢.

والقرآن الكريم يهدينا للتي هي أقوم من حياته المثلى وصلتها بهذا الإسلام، فيقول تعالى: {وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [1] وفي هاتين الآيتين يتجلّى بوضوح الصلة بين الاصطفاء الذي هو عبارة أخرى عن الاجتباء وبين الإسلام والانقياد المطلق لرب العالمين. وقال تعالى قبلهما: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ} [2].

فإبراهيم إمام الأنبياء وابنه اسماعيل يطلبان من الله مقام التسليم له تعالى، ومن المعلوم أنّ إبراهيم قد سأل ربّه هذا السؤال في أواخر عمره الشريف وبعد أن كَبُر، لاشتراك ابنه اسماعيل معه في هذا الدعاء عند رفع القواعد، ونحن نعلم أنّ إبراهيم قد وهب له اسماعيل وإسحاق على الكِبَر، حيث يقول القرآن الكريم على لسانه {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ} [3] كما أنّ ابراهيم كان من المرسلين قبل ولادتهما، فإن الملائكة في طريقها إلى قوم لوط لإنزال العذاب عليهم قد بشّرته بغلام عليم، كما في قوله تعالى: {وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ـ إلى قوله ـ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ..} [4] وقوله تعالى: على لسانه {هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} [5].

فإبراهيم إذ دعا بهذا الدعاء كان من أعاظم الأنبياء والمرسلين ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ وله من مقام الإسلام والتسليم لرب العالمين ما كان لجميع المرسلين، ولكنه ما زال يسأل الله هو وابنه مقام التسليم الأرفع.

ومن هنا نعلم أنّ الإسلام المطلوب له ولذرّيته هو أعلى المراتب التي يترتب عليها ما لا يترتب على مراتبه الأخرى وهو الشهادة المذكورة، وأنّ قوله تعالى: {مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٠ ـ ١٣١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٧ ـ ١٢٩.

(٣) سورة ابراهيم، الآية: ٣٩.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٥١ ـ ٥٤.

(٥) سورة الصافات، الآية: ١٠٠، ١٠١.

الْمُسْلمينَ من قَبْلُ}[1] يشير إلى هذا الإسلام المعهود المسؤول. ولا يبعد أن يقال: أنّ اللام في لفظة(المسلمين) هي لام عهدية، فيكون محصّل المعنى: إنّ الدين الذي لا حرج فيه هو ملة أبي الموحّدين ابراهيم، وأنّ الله سمّاكم المسلمين من قبل على لسان ابراهيم وفي هذا القرآن. وبهذا يمكننا أن نجمع بين ما يدل من الروايات على أنّ الضمير(هو) يرجع إلى الله وما يدل منها على رجوعه إلى ابراهيم.

وأخيراً، فإن من الجلي البيّن أنّ مثل هذا الاجتباء العظيم بما لَه من مقتضيات وتكريم إلهي أمر لا يناله إلا الأفذاذ المخلصون غاية الإخلاص، المطهّرون من الرجس. أما اسناد الاجتباء المعني بالشهادة إلى عموم المؤمنين فإنما هو باعتبار وجود من هو متّصف به فيهم، وذلك كقوله تعالى: {اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا}[2].

وهكذا تنطبق الآية الكريمة على مَنْ انطبقت عليه آية الشهادة ـ كما مر ـ مضافاً إلى ما يظهر من تطبيقها على آيات البقرة من أنّ المخاطب بها من ذرية إبراهيم عليه السلام خاصة، كما يشير اليه لفظة (أبيكم) في نفس الآية.

وقد ورد في روايات الفريقين عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: (أنا دعوة ابراهيم).

(فمنها) ما رواه في الدر المنثور أنه صلى الله عليه وآله قال:

أنا دعوة ابراهيم، قال: ـ وهو يرفع القواعد من البيت ـ {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ} حتى أتمّ الآية[3].

وقد روى أصحابنا هذا المضمون بطرق عديدة، مثل ما رواه القمي في تفسيره والصدوق في الخصال[4].

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٠.

(٣) الدر المنثور: ج١، ص ١٣٩.

(٤) راجع نور الثقلين: ج١، ص ١٠٩، ح ٣٨١ ـ ٣٨٢.

(ومنها) ما رواه في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل ذكر فيه قوله تعالى: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ..}[1] ثم قال عليه السلام: أخبر ـ أي الله تعالى ـ عن هذه الأمة وممن هي، وأنها من ذرية إبراهيم وذرية إسماعيل من سكّان الحرم، ممن لم يعبدوا غير الله قط، الذين وجبت لهم الدعوة ـ دعوة إبراهيم وإسماعيل ـ من أهل المسجد، الذين أخبر عنهم في كتابه أنه أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً[2].

وأصرح منه خبر العياشي في تفسيره عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: أخبرني عن أمة محمد صلى الله عليه وآله من هم؟ قال: أمة محمد بنو هاشم خاصة. قلت: فما الحجة في أمة محمد أنهم أهل بيته الذين ذكرت دون غيرهم؟ قال: قول الله: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[3] فلما أجاب الله ابراهيم وإسماعيل وجعل من ذريتهما أمة مسلمة وبعث فيها رسولاً منها ـ يعني من تلك الأمة ـ يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ردف ابراهيم دعوته الأولى بدعوة أخرى، فسأل لهم تطهيراً من الشرك ومن عبادة الأصنام ليصحّ أمره فيهم ولا يتبعوا غيرهم، فقال: {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[4]، فهذه دلالة على أنه لا تكون الأئمة والأمة المسلمة التي بعث فيها محمد صلى الله عليه وآله إلا من ذرية إبراهيم، لقوله {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ}[5].

وبما ذكرنا في حقيقة الاجتباء وما يلازمه تبيّن أنّ قوله تعالى: {مَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاء}[6] ليس في مقام تخصيص الاطلاع على الغيب بالرسل، بل ذكر الرسل مما اقتضاه الحال وظرف الخطاب.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٢) نور الثقلين: ج١، ص ١٠٩، ح ٣٨٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٧ ـ ١٢٨.

(٤) سورة ابراهيم، الآية: ٣٥ ـ ٣٦.

(٥) تفسير العياشي: ج١، ص٦١، ح ١٠١.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٧٩.

وقد ورد عن طريقنا روايات في أنّ المراد بالمجتبين والشهداء في هذه الآية هم أئمة أهل البيت عليهم السلام:

(منها) ما رواه ثقة الإسلام الكليني عن علي بن ابراهيم عن أبيه عن محمد بن أبي عمير عن ابن اذينة عن بريد العجلي، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام قول الله تبارك وتعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[1] قال: نحن الأمة الوسط، ونحن شهداء الله تبارك وتعالى على خلقه وحججه في أرضه. قلت: قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ}[2]. قال: إيّانا عنى، ونحن المجتبون. ولم يجعل الله تبارك وتعالى في الدين من حرج، فالحرج أشدّ من الضيق {مِّلَّةَ أَبِيكُمْ} إيّانا عنى خاصة {سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ} سمّانا المسلمين (من قبل) في الكتب التي مضت(وفي هذا) القرآن {لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ}[3] فرسول الله صلى الله عليه وآله الشهيد علينا بما بلّغنا عن الله تبارك وتعالى، ونحن الشهداء على الناس، فمن صدّق يوم القيامة صدّقناه، ومن كذب كذبناه[4].

(ومنها) ما رواه الصدوق في اكمال الدين بإسناده عن سليم بن قيس الهلالي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال في جمع من المهاجرين والأنصار بالمسجد أيام خلافة عثمان: أنشدكم الله أتعلمون أنّ الله عزوجل أنزل في سورة الحج: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا}[5] ـ إلى آخر السورة. فقام سلمان: فقال يا رسول الله، من هؤلاء الذين أنت عليهم شهيد وهم شهداء على الناس الذين اجتباهم الله ولم يجعل عليهم في الدين من حرج ملّة أبيكم ابراهيم؟ فقال صلى الله عليه وآله : عنى بذلك ثلاثة عشر رجلاً خاصة دون هذه الأمة.

قال سلمان: بيّنهم لنا يا رسول الله. قال صلى الله عليه وآله: أنا وأخي وأحد عشر من ولدي. قالوا: اللهم نعم[6].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٧، ٧٨.

(٣) سورة الحج، الآية: ٧٨

(٤) اصول الكافي: ج١، ص ١٩١، ح٤، وقد مر بسند آخر ذيل آية الشهادة.

(٥) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٦) كمال الدين: ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩، نور الثقلين: ج٣، ص ٥٢٦، الرقم ٢٤٤.

ـ ١٤ ـ

آية رؤية الأعمال

{وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[1].

الرؤية

الرؤية: إدراك المرئي بالعين أو بالقلب، قال في القاموس: الرؤية: النظر بالعين وبالقلب. وقال الراغب في المفردات: الرؤية إدراك المرئي، وذلك أضرب: الأول بالحاسّة وما يجرى مجراه، الثاني بالوهم والتخيّل، الثالث بالتفكر، الرابع بالعقل. وذكر لكل أمثلة.

والسين وإن كان حرف استقبال يستعمل لِمَا يُتوقّع تحققه بعد، إلا أنه قد يستعمل تحقيقاً لمدخوله وتأكيداً له ـ كما عن الزمخشري وابن هشام ـ وإن كان بمعنى الاستقبال فبملاحظة وقوع الفعل بعد ـ كما عن المجمع ـ.

والخطاب في الآية حتى بملاحظة السياق لا يختص بالتائبين المتصدقين من المؤمنين المذكورين في الآية السابقة، وإن كان مورداً له، بل يعمّ كل إنسان عامل، وإن كان المخاطبون بالفعل هم المؤمنين، فإنه في مقام التحريض على المراقبة والترغيب على الدقة والمواظبة، وأنّ عملهم غير خفي ولا مستور، وأنه مرئي ومشهود، وأنّ الشاهد الناظر هو الله تعالى القاهر فوق عباده ورسوله الأمين والمؤمنون المصطفون.

ثم إنّ هذا الانكشاف والرؤية يكون قبل البعث والقيامة قطعاً، لقوله تعالى: {وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[2] وهو في القيامة.

كما أنّ المرئي هو نفس العمل وحقيقته لا نتيجته مكافأة ـ كما قيل ـ ولا ظاهر العمل فقط كما في الظلال. فإن ظاهر الآية الشريفة ومقتضى افتراق الرائي والمرئي واقتران رؤية الرسول

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

والمؤمنين برؤية الله تعالى يأباهما، مضافاً إلى أنّ رؤية ظاهر العمل أو نتيجته لا يختص بالمؤمنين، بل يراه كل ذي عين.

فالمعنى ـ والله أعلم ـ: يا أيها النبي قل للناس: اعملوا ما شئتم ولكن اعلموا أنّ الله تعالى يرى أعمالكم وأنتم بمنظره ومرآه، فيجازيكم بها يوم القيامة حين تردون إليه، وكذلك رسوله شاهد ناظر لِمَا تعملون، والمؤمنون ـ الذين هم غيركم طبعاً ـ أيضاً شهداء ناظرون فعليكم بالدقة والمراقبة.

والإنسان يختلف حاله في العمل حين يكون بمنظر الغير وشهوده عنه في ما إذا كان على ستر وخفاء، ولا سيّما إذا كان الناظر مَنْ بيده الأمور، وإليه ينتهي كل مأمول.

وحينئذ، فلا كلام في رؤية الله تعالى أعمال العباد بحقائقها، بظواهرها وكوامنها، وبمبادائها ومطالبها. فإن كل ما يوجد ويعمل لا يتحقق إلا بمحضر منه تعالى العالم بكل شؤونه، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وأما رؤية الرسول والمؤمنين فإن كانت بالعين الظاهرة اختلفت عن رؤية الله تعالى، مضافاً إلى أنّ الرؤية بالبصر لا يختص بالرسول والمؤمنين، بل تعمّ كل من يكون العمل بمنظره ومرآه حتى المنافقين والكافرين، فلابد وأن يكون رؤيتهم رؤية تنفذ إلى صميم العمل وروحه وتحيط بحقيقته ومبادئه النفسية ومن الضروري عدم حصول مثل هذه الرؤية لجميع المؤمنين.

فكما أنّ الله تعالى يرى حقائق أعمال العباد، كذلك الرسول وهؤلاء المؤمنون يرونها بالإشراف والتطلّع عليها كما عرفت في آية الشهادة.

والى ذلك تشير روايات كثيرة جداً وردت في عرض الأعمال على رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى الأئمة المعصومين عليهم السلام الوارد جلّها في ذيل الآية المبحوث عنها، فيتعيّن بها مصداق(المؤمنين) وأنهم الأئمة المعصومون عليهم السلام.

وقد أشرنا في ذيل البحث عن آية الشهادة إلى ما يتوهّم من الاختلاف بين مفاد الآية والروايات، والى ما يرفع به هذا التوهّم فراجع.

فالآية تدل على أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام ـ وهم أجلى مصاديق المؤمنين ـ يرون كل ما يعمله العباد رؤية لا تتمّ إلا بالإشراف الوجودي على الأعمال ومنابعها النفسية.

وليعلم أنّ انتساب الرؤية إلى الله تعالى ـ كانتساب أي فعل آخر إليه ـ يخلو من عنصر الزمان، فالعمل مثل كل شيء آخر يكون بمنظره ومرآه، وقبله وحينه وبعده، وفي أي مرتبة من مراتبه حاضر لديه تعالى.

وقد يقال: إنّ وجود حرف الاستقبال في الآية يجعلها ناظرة إلى مرتبة بقاء العمل بعد وقوعه، في قبال من يوهم زواله، بعد أن لم يكن هناك زمان في الانتساب، فتفارق آية الشهادة في أنها ناظرة إلى مرحلة ما قبل وقوع العمل إلى حين وقوعه.

وإن شئت فعبّر عن ذلك بأن آية الشهادة تنظر إلى مختلف مراحل العمل، إذ ينطلق من مبادئه النفسية مارّاً بمراحل التحقق، ومن ثم باقياً إلى حين أداء الشهادة في يوم القيامة. وأما آية الرؤية فهي تنظر إلى مرحلة بقاء العمل بعد تحققه فقط.

والملاحظ أنّ انطباق روايات عرض الأعمال على هذا الوجه أوضح منه على غيره.

واليك نماذج منها:

روى الكليني عن عدّة من أصحابنا مسنداً عن يعقوب بن شعيب، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزوجل {اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} قال: هم الأئمة[1].

وروى عن سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول ما لكم تسوؤن رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال رجل: كيف نسوؤه؟

فقال: أما تعلمون أنّ أعمالكم تعرض عليه؟ فإذا رأى فيها معصية ساءه ذلك، فلا تسوؤا رسول الله صلى الله عليه وآله وسرّوه[2].

---

(١) الكافي: ج١، ص ٢١٩، ح٢.

(٢) الكافي: ج١ ص ٢١٩، ح ٣.

وروى أيضاً عن عبد الله بن أبان الزيات ـ وكان مكيناً عند الرضا عليه السلام ـ قال: قلت للرضا عليه السلام: ادع الله لي ولأهل بيتي.

فقال: أولست أفعل؟ والله إنّ أعمالكم لتعرض عليّ في كل يوم وليلة.

قال: فاستعظمت ذلك، فقال لي: أما تقرأ كتاب الله عزوجل: {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}. قال: هو والله علي ابن ابي طالب عليه السلام [1].

(١) الكافي : ج١، ص ٢١٩، ح ٤.

في نهاية المطاف

نتائج البحث في الآيات الشريفة

رأينا في خاتمة هذه البحوث أن نلخص نتائجها لتسهل عملية الربط وتتوضح الصورة المطلوبة، وذلك كما يلي:

١ـ نتيجة البحث في آية الخلافة:

الأول: أن الخلافة جعل إلهي ولا دخل لغيره في جعلها

الثاني: أنّ الخلافة الإلهية المذكورة مطلقة غير مخصوصة بجهة معيّنة.

الثالث: أنّ منح هذه الخلافة الإلهية المطلقة متوقف على علم المرشح لها بجميع أسماء الله الحسنى وصفاته العليا؛ لكي يتمكن من التعبير عنها، كما هو متوقف أيضاً على معرفته لجميع المخلوقات؛ ليتمكن من القيام بمهمة تدبيرها وقيادتها.

الرابع: أنّ الخلافة لا تنحصر في شخص آدم عليه السلام، وذلك لما يرشدنا إليه اعتراض الملائكة بسفك الدماء، هذا من جهة، ومن جهة فإنه لا يستحقها جميع أبناء آدم المفسدين في الأرض، وإنما يختص بها العالم بجميع الأسماء.

الخامس: إنّ وجود ذلك الخليفة هو الغاية القصوى والهدف الأسمى لخلق الإنسان في كل زمان، أما غيره فهم تبع له سائرون تحت ظل قيادته الحكيمة.

٢ـ نتيجة البحث في آية الإمامة:

الأول: أنّ الإمامة المجعولة لشيخ الأنبياء ابراهيم عليه السلام لم تكن مقاماً نفسياً خاصاً له لا يمتلك بعداً اجتماعياً، بل إنما جعل للناس إماماً.

الثاني: أنه منح هذا المقام العالي بعد أن كان نبياً رسولاً، وعندما كان قد كَبُر ومرّ بامتحانات كبرى، فأتمّ الكلمات التي ابتلاه الله بها.

فلم يكن منحه هذا المقام مما يرجع إلى شريعته وأحكامها التي أعطيت للناس، بل هو راجع إلى هدايته الحقّة التي تصل إلى كل من يستعد لها تكويناً.

الثالث: أنّ ذلك العهد الإلهي(الإمامة) لا ينال أي ظالم أبداً ولو لنفسه، وهذه هي العصمة.

الرابع: أنّ الإمامة عهد إلهي، وليس أمراً يترك للناس تعيينه وانتخاب صاحبه.

الخامس: إنّ كون الشخص إماماً يقتضي أن يكون قوله وفعله وتقريره مطلقاً حجة على الخلق فتجب طاعته.

السادس: إنّ إمامته وهدايته الباطنة للناس تستلزم علمه الشهودي بمجاري تلك الهداية.

٣ـ نتيجة البحث في آية أولي الأمر:

الأول: إنّ للرسول مقامين:

(المقام الأول) الرسالة أي كونه واسطة في إبلاغ ما يوحى اليه من الله تعالى من الأحكام وغيرها إلى العباد.

(المقام الثاني) القيادة والزعامة وولاية الأمر أي الحكومة على الأمة، فتجب طاعته في أوامره الحكومية كما تجب طاعته في أوامره التبليغية عن الله سبحانه.

الثاني: أنّ إطاعته في كل المقامين على نسق واحد، فهو إذاً معصوم لإطلاق الأمر بالطاعة واقتران إطاعته بإطاعة الله تعالى.

الثالث: أنّ إطاعة أولي الأمر هي نفس إطاعة الرسول في ما يرجع إلى مقامه الثاني.

الرابع: أنّ الظاهر من الإطلاق الزماني لإطاعة أولي الأمر عدم خلو زمان من أحدهم.

الخامس: أنّ المراد من أولي الأمر أفراد معصومون من الأمة، فلا ينطبق هذا العنوان على الهيئة الاجتماعية أو أهل الحل والعقد ـ كما اصطلحوا عليه.

السادس: أنّ أولي الأمر كما أنهم المرجع في المجالات الإدارية العامة كذلك هم المرجع في معرفة التشريعات الإسلامية بعد النبي صلى الله عليه وآله.

٤ـ نتيجة البحث في آية الولاية:

الأول: أنّ الولاية لا تعني في تمام مواردها إلا القرب والدنو.

وهذا القرب والدنو يقتضي الاتصال والتأثير، ويستلزم التصرف والتدبير، أو المحبة، أو التسلط. فلا تكون مشتركاً لفظياً بين هذه المعاني، بحيث يكون استعمالها في أحدها يختلف تماماً عن استعماله في الآخر.

الثاني: أنّ الركوع هو الانحناء، واستعماله في الخضوع والتذلل مجازي.

الثالث: أنّ الله وحده هو ولي المؤمنين أصالة، ثم وليهم ـ تبعاً لولاية الله تعالى ـ الرسول صلى الله عليه وآله، ثم الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، وهم غير المخاطبين المولى عليهم.

الرابع: أنّ العلاقة بين المؤمنين وهؤلاء الأولياء إنما هي العلاقة التي يتصرف بها الولي في أمور المولى عليهم، فليست إلا الأولوية في التصرف.

الخامس: أنّ من ينطبق عليه عنوان(الَّذِينَ آمَنُوا..) هنا هو الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام، كما أطبقت عليه روايات الفريقين.

وهذا من باب انطباق العنوان على مصداقه ومعنونه، كما وجدنا ذلك في موارد كثيرة أخرى، وليس من استعمال لفظ الجمع في المفرد.

السادس: أنه لا يختلف الموقف من هذه النتائج في حالة وحدة السياق عنه في ما إذا فرضنا التعدد وانفصال هذا المقطع عن المقاطع الأخرى من الآية.

السابع: أنّ الإمام علياً عليه السلام نفسه احتجّ بهذه الآية مراراً.

٥ـ نتيجة البحث عن آية التبليغ:

هي أننا إذا استعرضنا جميع الأحكام الإسلامية لم نجد فيها ما يصح أن يجعل ترك تبليغه للناس بمنزلة ترك تبليغ مجموع الرسالة الإسلامية، وما يمكن معه أن يخاف الرسول صلى الله عليه وآله من الناس في إبلاغه وينتظر الفرصة السانحة الثمينة. اللهم إلا إذا كان ذلك أمراً في مستوى

أمر الرسالة، وهو الولاية التي اثبتتها آية الاكمال، وذلك باعتبار أنّ الإمامة والولاية هي سر بقاء الشريعة وخلودها. وهناك روايات تؤيد ذلك.

٦ـ نتيجة البحث في آية الاكمال:

الأول: أنّ الآية لاترتبط بما قبلها وما بعدها بسياق واحد.

الثاني: أنّ المراد من اليوم الذي يئس فيه الكفار وكمل فيه الدين هو يوم الغدير لا غير.

الثالث: أنّ علة يأس الكفار وكمال الدين هو وضع نظام الإمامة والنيابة الدائمة التي تجعل الدين الإسلامي غير قائم بالشخص.

الرابع: أنّ المراد بالنعمة هنا هي الولاية.

الخامس: أنّ هذه الأمور لَمّا لم تكن برهانية فقد أثبتت بالروايات من الفريقين.

٧ـ نتيجة البحث في آية علم الكتاب

الأول: أنّ هذه الآية بصدد تقوية قلب النبي صلى الله عليه وآله وتثبيته في قبال تأثيرات إنكار المنكرين لرسالته، وذلك بإعلان شهادة الله على ذلك ـ وكفى به شهيداً ـ وشهادة من عنده علم الكتاب.

الثاني: أنه يمكن معرفة المراد بعلم الكتاب ـ إلى حدّ ما ـ بملاحظة قوله تعالى: {قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ}[1].

الثالث: أنّ اقتران شهادة من عنده علم الكتاب بشهادة الله ووصفها بأن فيها الكفاية دليل على رفعة شأن صاحبها. وقد وردت روايات كثيرة من الفريقين تدل على أنه أمير المؤمنين علي عليه السلام.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٤٠.

٨ـ نتيجة البحث في آية البينة:

الأول أنّ الشاهد من رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته، ويكون تالياً له (ص) وبمنزلة نفسه.

الثاني: أنّ مبادئ تحمل هذه الشهادة تختلف عن مبادئ سائر الشهادات، إذ الشهادة هنا عن حضور وشهود لحقيقة النبوة، ورؤية جبرائيل حين الوحي.

الثالث: أنه لابد وأن يكون الشاهد معصوماً من الخطأ والنسيان ومن تصرفات الشيطان، لكي لا يبقى أي ريب في الشهادة.

الرابع: أنّا إذا جمعنا هذه الآية مع آية(عِلْمُ الْكِتَابِ) عرفنا أنّ هذا الشاهد هو مَنْ عنده علم الكتاب. وقد دلّت الروايات من الفريقين على أنه هو أمير المؤمنين علي عليه السلام.

٩ـ نتيجة البحث في آية المباهلة:

الأول: مدى فضل أهل البيت، وهم علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وأنهم أحب الخلق إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وأخص خاصّته لديه، وأنّ علياً عليه السلام ينطبق عليه عنوان (نفس النبي) كما صرّح به الرسول(ص) في الأخبار واحتجّ به علي عليه السلام يوم الشورى.

الثاني: أنّ أهل البيت عليهم السلام الذين شاركوا النبي صلى الله عليه وآله في المباهلة قد شاركوه في الدعوى والدعوة أيضاً.

١٠ ـ نتيجة البحث في آية التطهير:

الأول: أنّ ارادة الله تعالى نوعان: تشريعية يمكن تخلّف مرادها عنها، وتكوينية لا يمكن فيها ذلك.

الثاني: أنّ ارادة الله سبحانه تعلّقت بإذهاب الرجس عن أهل البيت عليهم السلام تكويناً دون غيرهم، ذلك أنّ الارادة التشريعية بالتطهير لا تختص بهم. بل تعمّ جميع الناس المكلفين.

الثالث: أن ليس القصر هنا قصر قلب ليشمل عنوان(أهل البيت) نساء النبي صلى الله عليه وآله، وذلك لتذكير الضمير في هذا المقطع خاصة مع تأنيثه في غيره من المقاطع.

الرابع: أنّ هناك روايات جمّة من الفريقين متطابقة على نزول الآية في شأن الخمسة الطيبة عليهم السلام.

١١ـ نتيجة البحث في آية المودة:

هي أنّ القرآن يحدّثنا في آيات مختلفة عن سنّة ثابتة للأنبياء جميعاً وهي عدم سؤال الأجر، وهذا القانون لا استثناء فيه مطلقاً. أما الأجر المسؤول في هذه الآية فليس من سنخ الأجر المنفي بذلك القانون، وإنما يرجع إلى مسألة بقاء الرسالة الإسلامية وارتباط الأمة بقيادتها، فيجب مودة ذوي القربى لذلك.

١٢ ـ نتيجة البحث في آية الشهادة:

الأول: أنّ الله تعالى منّ على المؤمنين بأن جعلهم أمة وسطاً، والوسطية هي الاعتدال الكامل وعدم الافراط والتفريط.

الثاني: أنّ غاية ذلك الجعل هي كونهم شهداء على الناس وكون الرسول شهيداً عليهم.

الثالث: أنّ هذه الشهادة تقوم على أساس الحضور والإشراف في مرحلة تحملها ثم إظهارها في مرحلة الأداء.

الرابع: أنّ الشهيد في هذا المقام لابد وأن يحضر الأعمال بتمام الجهات: ظواهرها ومبادئها، حتى يتمكن من الأداء وكشف الواقع كما كان.

الخامس: أنه لا يمكن اتّصاف جميع أفراد الأمة بهذه الصفة، فلابد أن يكون فيهم من يكون متّصفاً بها.

السادس: أنّ هؤلاء الشهداء معصومون بحكم اطلاق الوسطية المجعولة.

السابع: أنهم عالمون بالغيب؛ لأنهم يشهدون ويشرفون على ضمائر الناس.

الثامن: أنهم يشكّلون واسطة الفيض الإلهي، فلهم الولاية التكوينية بمقتضى كون علمهم هذا حضورياً ـ بناءً على ما برهن في محله.

التاسع: أنه لا تخلو الحياة الإنسانية من وجود هذه الحجة الإلهية.

١٣ ـ نتيجة البحث في آية الاجتباء:

هي أنّ الله تعالى اجتبى من عباده المؤمنين طائفة ليكون الرسول شاهداً عليهم ويكونوا شهداء على الناس. وهذا الاجتباء يلازم الإسلام والتسليم الحق الذي استوهبه ابراهيم عليه السلام في دعائه بعد أن كان قد حاز على مقام شامخ من التسليم والنبوة. ولذلك فإن المجتبى في هذه الآية لا يمكن أن يكون إلا الفرد المتميّز المسلم مطلقاً لله تعالى.

ولَمّا كانت غاية ذلك الاجتباء الشهادة على الناس كشهادة الرسول صلى الله عليه وآله عليهم، لزم أن يكون هؤلاء الشهداء مطّلعين على أعمال العباد بجميع منابعها النفسية.

١٤ ـ نتيجة البحث في آية رؤية الاعمال:

الأول: أنّ أعمال الناس مطلقاً بمرأى ومنظر من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله والمؤمنين المصطفين، وأنهم يرونها قبل موقف القيامة.

الثاني: إنّ رؤية الرسول صلى الله عليه وآله والمؤمنين ـ بمقتضى وحدة السياق ـ تكون بحضور العمل لديهم وإشراف الرائي على المرئي دون الرؤية البصرية، فإنها لا تخصّهم. ومثل هذه الرؤية ليست متوفرة لجميع المؤمنين، فالمراد هنا بعضهم.

الثالث: أنّ ذلك هو ما تقصده روايات عرض الأعمال على رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى الأئمة المعصومين عليهم السلام التي وردت في ذيل الآية تفسيراً لها.

مسك الختام

وفي ختام هذا البحث لابد من التعرّض لموضوعين هامّين وملاحظة الإشكالات التي قد تثور في الأذهان حولهما، وهما: العلم بالغيب. والعصمة.

الأول: العلم بالغيب

ربما يستشكل على القول بعلم النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام بالمغيّبات:

أولاً: بأنه مناف للآيات الدالّة على انحصار العلم بالغيب بالله تعالى كقوله عزوجل: {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ}[1] وقوله تعالى: {قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ}[2] والآيات الدالة على عدم علم النبي صلى الله عليه وآله بالغيب كقوله تعالى: {وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ}[3] وقوله تعالى: {وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ}[4] إلى غير ذلك.

وثانياً: بأنه مناف لسيرتهم العملية من التوسل بالأسباب العادية لحصول العلم، بل مشاورة غيرهم في الأمور، كما هو المأمور به في الكتاب العزيز.

وثالثاً: بأنه لا يمكن تصحيح كثير مما أقدموا عليه طيلة حياتهم إلا بالجهل بالعواقب، كسوق الجيش إلى معركة غير ناجحة، والتضحية بأعز الأنفس وأخلص الأصحاب في قتال غير ظافر، فإن مثل هذه الأفعال مع العلم بالخيبة والهزيمة غير سائغ عقلا وشرعاً، فوقوعها منهم دليل على عدم علمهم بعواقبها.

وهذه الإشكالات تنشأ من قلّة التدبّر في الآيات، وضعف البصيرة في الدين، وقصور الباع في مجال الحقائق العقلية. وترتفع هذه الشبهات بمعرفة أمور:

(الأول): إنّ العلم بالغيب ربما يطلق على العلم بما غاب عن حواس الإنسان بأي طريق حصل، ولو كان من البرهان العقلي أو الدليل النقلي، كالعلم بوجود الصانع ووحدته تعالى، وربما يطلق

---

(١) سورة الانعام، الآية: ٥٩.

(٢) سورة النمل، الآية: ٦٥.

(٣) سورة الاحقاف، الآية: ٩.

(٤) سورة الاعراف، الآية: ١٨٨.

على العلم بما غاب عن الحس والعقل، كـأحوال البـرزخ والقيامـة، وأخيـراً يطلـق علـى العلـم الاستقلالي بما غاب عن مشاعر الخلق اطلاقاً.

ومن الواضح إمكان العلم بالغيب بغير المعنى الأخير لغير الله تعالى. فمنه ما هو حاصل لجميـع المؤمنين بل لغيرهم أيضاً بدلالة العقل. فإن الإيمان بالغيب يـستلزم العلـم بـه، فـالمتقون الـذين يؤمنون بالغيب عالمون به. كما أنهم عالمون ببعض الغيب عن طريق إخبار الله تعالى فـي كتابـه، كغلبة الروم مثلاً قبل أوانها، وكعلمهم بالحوادث الماضية التي لا تنالها حواسّهم مما كـشف عنـه القرآن الكريم، وقد قال تعالى: {تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُـكَ مِن قَبْلِ}[1].

ولا يرتاب أحد في عدم شمول الآيات النافية لمثل هذه العلوم، ولا يرى أحد تعارضـاً بينهـا، وذلك لأجل انصراف الآيات النافية إلى العلم الذاتي الذي لا يكون بتعليم من الله تعالى بـوحي أو الهام أو غيرهما ـ إذا كان هناك طريق آخر ـ فـإذا اخـتصّ الله تعـالى عبـداً مـن عبـاده بـالعلم بالمغيّبات بأحد هذه الطرق صحّ نفي العلم بالغيب عنه بالمعنى الأخير كما صحّ إثباته لـه بمعنـى آخر، إلى ذلك يشير قول أمير المؤمنين عليه السلام(إنما هو تعلّم من ذي علم)[2].

(الثاني): إنّ العناوين التي تطلق على الإنسان ـ كنفس هذا العنوان (الإنسان) ـ قد يلاحظ فيها مرتبة خاصة من وجوده، كالجانب المادي منه مثلا، كما في قوله تعالى: {إِنِّـي خَـالِقٌ بَـشَرًا مِـن طِينٍ}[3] وقوله عز وجل {خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ}[4] فإن من المعلوم أنّ الماء والتراب هما مادة البنية البدنية للإنسان، ولهذا قال تعالى: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِـن رُّوحِـي فَقَعُـواْ لَـهُ سَاجِدِينَ}[5]. وقد يلاحظ فيها الجانب الروحي فقط.

كقوله تعالى: {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ}[6] فان الذي يقبضه ملك الموت هـو الروح، وقد أشير اليه بضمير المخاطب (كم). وقد يلاحظ فيها مجموع الجانبين بصرف النظر عـن

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٩.

(٢) نهج البلاغة: رقم الخطبة ١٢٨، ص ١٨٦ ط صبحي صالح.

(٣) سورة ص، الآية: ٧١.

(٤) سورة الرحمن، الآية: ١٤.

(٥) سورة الحجر، الآية: ٢٩.

(٦) سورة السجدة، الآية: ١١.

الكمالات الحاصلة له في طريق التكامل. وقد يلاحظ فيها مع ذلك ما يكسبه بالطرق العادية، كما أنه قد يلاحظ فيها جميع شؤونه الوجودية، حتى أعلى الكمالات النورية التي يصل في غاية سيره الصعودي بنحو من الأنحاء، تلك الكمالات المنزّهة عن شوائب المادة، والمحيطة بآفاق الزمان والمكان، والمهيمنة على جميع ما دونها من الكمالات الإمكانية إن ساعده التوفيق.

فإذا اطلق الإنسان أو عنوان آخر على شخص أو أتي بضميره وأريد به بعض هذه المراتب لزمه الحكم الخاص بتلك المرتبة، ولا ينافي ذلك ثبوت مرتبة أخرى له وإثبات حكم آخر بالنظر إليها، ففي قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ}[1] جعل الموضوع للقضية الضمير الذي يشير إلى الجانب البشري وحمل عليه البشرية المشتركة بينه وبين سائر الأفراد، ثم أضيف اليه أنّ له خاصة أخرى هي إدراك الوحي الذي يلقى اليه من الله تعالى. وفي قوله {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى}[2] أُشير إلى المرتبة البدائية من الخلقة الفاقدة للهداية الإلهية، ولا ينافي ذلك ثبوت مرتبة عليا له ـ صلوات الله عليه وعلى آله ـ بالنظر إلى ما خصّهم الله تعالى به من الكرامات التي لا مطمع فيها لسائر الناس. فنفي صفة عنه بلحاظ مرتبة دانية من وجوده الشريف لا ينافي إثبات نفس الصفة لها بالنظر إلى مرتبة عليا، وإنما يترجّح اعتبار مرتبة خاصة دون أخرى حسب ما تقتضيه مقامات التخاطب المختلفة كما لا يخفى. وبهذا الوجه يجمع بين طوائف من الآيات والروايات الموهمة للتعارض، فتأمل هذا جيداً.

(الثالث): إنّ العلم إما حضوري يتعلق بعين المعلوم بلا واسطة كعلم الله تعالى بذاته وصفاته وأفعاله، وإما حصولي بواسطة الصورة الحاصلة في القوة المدركة كعلمنا بالأعيان الخارجية وبالأمور الاعتبارية بواسطة الصور والمفاهيم. أما العلم الحضوري في الإنسان فيختص بنفسه وقواه وأفعاله وانفعالاته، كما أنّ علمه الحصولي يحصل له بتأثير من الخارج فيه من طريق حواسّه الظاهرة والباطنة التي هي كالنوافذ التي تتفتح على الخارج، فتنعكس صور الأشياء بسببها في قواه الإدراكية.

ثم يحصل له نوع آخر من العلم بفعالية ايجابية من الذهن، وهو أيضاً من سنخ العلوم الحصولية. وهذا لا ينافي كون نفس المفاهيم والصور العلمية معلومة للنفس بالعلم الحضوري، فإنها من هذه الحيثية تكون من أفعالها أو انفعالاتها.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٢) سورة الضحى، الآية: ٧.

وهذه العلوم هي التي تعد علوماً إنسانية بحسب النظر المتعارف، كما أنّ الأفعال المرتبطة بها تعد أفعالاً إنسانية، لكن يمكن النظر إلى الإنسان وعلومه وأفعاله من منظر آخر، وهو أنه موجود رابط تعلّقي لا استقلال له في ذاته وشؤونه ولا يملك لنفسه ضرّاً ولا رشداً.

وفي هذه النظرة يرى الإنسان فاقداً لأي كمال وجودي من علم وقدرة وغيرهما.

كما أنه يمكن أن ينظر إلى بعض أفراد الإنسان من منظر ثالث، وهو النظر إلى من بلغ مرتبة عالية من الكمال فوق ما يناله الإنسان العادي، فأوتي من عند الله علماً إلهياً بما هو مختف عن مدارك الناس ومحتجب تحت أستار الغيب، وأوتي قدرة ربانية على ما يعجز عنه عامة الخلق كإحياء الموتى وشفاء المرضى بل الخلق بإذن الله تعالى.

ولكل نظر من هذه الأنظار حكمه الخاص به، ولا منافاة بين الاحكام المختلفة على شخص واحد من الجهات المتعددة. كما أشرنا اليه في الأمر الثاني. فعلم عيسى بن مريم عليه السلام بما كان الناس يدّخرون في بيوتهم وقدرته على إبراء الأكمه والأبرص بحسب النظر المتعارف لا يعدّان علماً وقدرة إنسانيين، كما أنّ علومه وأفعاله العادية أيضاً تعد بحسب النظر الثاني ملكاً لله تعالى وتسلب عنه حقيقة.

لكن جميع علومه وأفعاله تنسب إليه بحسب النظر الثالث، فكان له أن يقول: {أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِىءُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ}[1] فيقول: لي هذه القدرة والعلم بحسب هذا النظر، وله أن يقول: إنّي لا أملك شيئاً لا علماً ولا قدرة، وهذا بحسب النظر الثاني، وله أن يقول: أنا مثلكم، لي مالكم من العلم والقدرة، ولكن يعلّمني ربّي مالا يعلّمكم، ويقدرني على مالا تقدرون عليه، وهذا بحسب النظر المتعارف.

ثم إنّ العلم قد يتعلق بأمور منتظمة في نظام ضروري من العلل والمعاليل بما فيه إرادة الإنسان واختياره، ومثل هذا العلم لا تأثير له في الإرادة؛ لأنه كاشف عن مجموع المراد والإرادة المنبثقة عن مبادئها، بخلاف سائر العلوم الحصولية التي تؤثر في انتشاء الإرادة، سواء حصلت من الأسباب العادية أو غيرها.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.

***

إذا عرفت هذه الأمور فاعلم أنّ اثبات العلم بالمغيّبات للنبي والأئمة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ إذا كان بمعنى العلم الحضوري كان بلحاظ مقامهم النوري الذي هو فوق وعاء الحركات والتغيرات والتقدمات والتأخرات الزمانية. ووصولهم إلى ذلك المقام وإن كان بلحاظ ظرف المادة ووعاء الحركة متأخراً زماناً إلا أنه بحسب المرتبة الوجودية وبلحاظ القوس النزولي متقدم دهراً. وهذا أمر لا تسعه الأفهام المنغمرة في الماديات، ولا ينبغي القاؤه اليهم. ولسان الروايات في هذا المقام أنّ نورهم عليهم السلام خلق قبل كل شيء وانتقل بعد خلق آدم إلى صلبه وأصلاب أبنائه إلى أن خلقت أجسادهم فاستقر فيها.

وإذا كان بمعنى العلم الحصولي فيتصور له معنيان: أحدهما العلم بالنظام الضروري بما فيه الإرادة ومبادئها، وقد سبق أنّ مثل هذا العلم لا يكون من مبادئ الإرادة ولا مؤثراً فيها، بل علم بالعلوم التي تشكّل مبادئ الإرادة وبالإرادة المنبثقة عنها وبالمراد الذي يحصل بها. وثانيهما العلم بالأشياء الجزئية من طرق الوحي والإلهام، وهذا كالعلم العادي يؤثر في الإرادة، لكن مرتبة وجوده أدنى من مرتبة العلم بالنظام الضروري، وهي مرتبة من النفس تتجلّى فيها الارادة.

ولا يرد على شيء من هذه العلوم إشكال اختصاص العلم بالغيب بالله تعالى؛ لأنها كلها حاصلة بنوع من التعليم المناسب لها من الله سبحانه، وقد عرفت أنّ هذا غير العلم بالغيب بالمعنى المختص بالله تعالى.

ولا تنافيها سيرتهم العملية؛ لأن العلم الحضوري والعلم بالنظام الكلي متعلق بالحوادث بما لَها من العلل والمعدات. وأما العلم الحصولي بمعناه الثاني فهو ثابت بالإيجاب الجزئي لا الكلي.

وبذلك يظهر الجواب عن الإشكال الثالث أيضاً؛ لأن العلمين الأولين وإن كانا شاملين لجميع الموارد إلا أنه لا تأثير لهما في انتشاء الإرادة كما مرّ توضيحه. وأما العلوم المؤثرة فيها فليست كلها حاصلة من الطرق غير العادية التي تعد علوماً غيبية، بل كثير منها حاصل من الطرق العادية، وشأنها في التأثير في الأفعال المنسوبة إلى جانبهم المادي شأن علوم سائر الناس.

وينبغي التنبيه على أنّ تضيحة الأنفس وتعريضها للقتل ـ حتى مع العلم بعدم النصر العاجل ـ ليست بممنوعة مطلقاً، فإنها ربما تؤدي إلى النصر الآجل ولو بعد سنين أو قرون، وربما تكون سبباً لهداية قوم إلى الله ووصولهم إلى ساحة قربه الأسمى ولغايات أخرى لا نحيط بها علماً.

فالإقدام على التضحية والقتال غير الناجح ليس دليلاً على عدم العلم بالعاقبة اطلاقاً.

الثاني: العصمة

إنّ ما سبق من الآيات يكفينا مؤونة البحث عن عصمة هؤلاء الصفوة مستقّلاً، فلا يرتاب سليم الفطرة عن رجس الآفات وسقم العاهات بعد إمعان النظر فيها حق الإمعان في أنهم ـ صلوات الله عليهم ـ مطهّرون عن كل عيب وشين، وأنه لا يجوز في عناية الله تعالى أن يتخذ للرسالة والإمامة رجلاً تزدريه الأعين وتستحقره النفوس لِمَا به من مهانة النفس ورعونة الأخلاق وسابقة الخطأ والجفاء، وهو القائل عزّ من قائل: {اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}[1] {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ}[2].

وقد أكد ـ تبارك وتعالى ـ عصمتهم تصريحاً وتلويحاً في كتابه الكريم مرات عديدة وبأساليب مختلفة:

(فمنها) قوله تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِه أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُول فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِه رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا}[3] فإن ظاهر هذه الآيات أنّ الوحي مصون من الإلقاءات الشيطانية من لدنّ مصدره إلى البلوغ إلى الناس، بإرسال المراقبين الحارسين له من قِبَل الله تعالى.

(ومنها) قوله سبحانه: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُول إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّه}[4] حيث جعل الرسول مطاعاً مطلقاً في جميع ما من شأنه أن يطاع فيه من الأفعال والأقوال والآداب. فلو احتمل وجود خطأ منهم في بعض ما له مساس بالطاعة ـ كائناً من كان ـ للزم أن يكون قد أمر الله تعالى بإتباع الخطأ والضلال، وهذا مستحيل على الله سبحانه.

---

(١) سورة الانعام، الآية: ١٢٤.

(٢) سورة القصص، الآية: ٦٨

(٣) سورة الجن، الآية: ٢٦ ، ٢٧، ٢٨.

(٤) سورة النساء، الآية: ٦٤.

(ومنها) قوله عزوجل: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}[1] ويقرب منه قوله تعالى: {وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ..}[2] فتأمل في قوله تعالى: {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}فهل يظنّ الشين والخطأ بمن كان في حراسة الله وشدة عنايته به؟!

(ومنها) قوله تعالى: {فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[3] وهذا كما ترى اعتراف من ابليس ـ وهو مبدأ الضلال ـ بعجزه عن إغواء هؤلاء الذين أخلصهم الله واصطنعهم لنفسه، وقال تعالى في شأن سيدنا يوسف الصدّيق عليه السلام: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}[4] وهذه الآية تدل على تعلق عناية الله تعالى بصرف السوء والفحشاء عن عباده المخلصين، فما ظنّك بمن يتولّى الله أمره ويكون في كلاءته وحراسته ويؤكد عصمته بمثل هذا الضمان الصريح؟!

ولسنا بصدد احصاء الآيات الدالة على عصمتهم وبيان وجوه دلالتها، بل المقصود هو التنبيه على أنّ القلوب السليمة عن الأمراض المعنوية لا يعتريها ريب في ذلك. وأما المبتلى بنزغات الشيطان الممرور الذوق فربما يتذوّق حلاوة أعمالهم وآدابهم فيجدها بمقتضى ذوقه الصفراوي مريراً، فينسب الشين اليهم ـ والعياذ بالله ـ وهو لا يدري أنّ أصل تلك المرارة هو مداركه المؤوفة، ولو عرف المسكين وكان ذا نصفة لعلم أنه ينسب الشين لنفسه هو دون غيره.

ولذلك تصدّى الأئمة من أهل البيت عليهم السلام لدفع تلك الشبهات وتنزيه ساحة الأنبياء من هذه النسبة.

ولكن بِمَ تمسك المبطلون من الآيات فنسبوا الشين والعصيان إلى ساحتهم المقدسة؟

نحن هنا نقتصر على استعراض الآيات التي استندوا اليها في نسبة الشين إلى النبي الأعظم ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ والعياذ بالله تعالى.

(فمنها) الآيات التي تنسب الذنب له صلى الله عليه وآله، وهي ثلاث:

---

(١) سورة الطور، الآية: ٤٨.

(٢) سورة الاسراء، الآية: ٧٤.

(٣) سورة ص، الآية: ٨٢، ٨٣.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٢٤.

إحداها: قوله تعالى: {وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ}[1].

والثانية: قوله تعالى: {اسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ}[2].

والثالثة: قوله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}[3].

قال الراغب في المفردات: الذنب هو الأخذ بذنب شيء يقال: ذنبته أصبت ذنبه. ويستعمل في كل فعل يستوخم عقباه، اعتباراً بذنب الشيء، ولهذا يسمّى الذنب(تبعة) اعتباراً لما يحصل من عاقبته.

ويقرب منه ما عن غيره.

والفعل الذي تخاف مغبّته على أنحاء:

منها ـ التمرد على القوانين المشرعة لتنظيم الحياة الاجتماعية، إذ يعدّ المتمرّد عليها مذنباً وتناله العاقبة السيئة المتناسبة ومدى تمرّده شدّة وضعفاً. وهذا هو الذنب الوضعي الذي يقابله الجزاء الوضعي.

ومنها ـ الخروج على القوانين الأخلاقية. ذلك أنّ الأخلاق الفاضلة كالشجاعة والعفة والعدالة بكل تفريعاتها وبناءاتها العلوية وإن كانت جيمعاً أوصافاً نفسية لا ضامن لإجرائها عملياً لأنها ملكات لا اختيارية بنفسها، لكنها اختيارية بالقدرة على محصّلاتها ومقدماتها بإمكان تكرار العمل. فهناك أوامر عقلية بتحصيل تلك الفضائل، ونواهٍ مثلها عن ما يقابلها من الرذائل. ولهذا يعدّ المتخلف عنها مذنباً ذنباً خُلقياً، وله، جزاؤه المنسجم معه وعاقبته الوخيمة.

ومنها ـ عدم الاتيان بالعمل على هيئته الصالحة التي تنبغي له أو بما ينسجم من الآداب. ذلك أنّ العامي البسيط قد يقوم بعمل يعدّ مشروعاً اجتماعياً أخلاقياً وبشكل لا يلام عليه بملاحظة إدراكه وظروفه، في حين يعدّ نفس هذا العمل بتلك الهيئة من السيئات إذا قام به شخص يعيش مستوى أرقى وظرفاً أسمى من ذلك. والى هذا المعنى يشير ما اشتهر من أنّ ((حسنات الأبرار

(١) سورة غافر، الآية: ٥٥.

(٢) سورة محمد، الآية: ١٢٩.

(٣) سورة الفتح، الآية: ١، ٢.

سيئات المقربين)). ولذا، فلا مانع من تسمية هذا الذنب بالذنب الأدبي، وله من الجزاء ما يناسبه أيضاً.

ثم إنّ من البديهي أنّ للحب مراتب، وأنّ غاية الشريعة هي السير بالمؤمنين نحو الكمال المطلق، حيث لقاء الله والتكرم بولايته. وهذا لا يتمّ للإنسان إلا إذا طهرت نفسه من أدران عبادة الأوثان وأتباع الإلهة الباطلة، فلم يبقَ له في توجّهاته إلا وجه الإله الحق، وإلا إذا انغرس حب الله جل وعلا في أعماق قلبه حتى استوى لديه الأنعام والايلام.

ومثل هذا الانسان المكرم الذي أخذت محبة الله بمجامع قلبه واتجهت نفسه بشوق ما بعده شوق نحو الكامل المطلق فلم يعد له مطلوب سواه، ولا دين إلا هذا الحب وتحقيق مقتضياته بالقيام بصالح الأعمال والابتعاد عن الموبقات؛ لأن الله يحب ذلك، لا طمعاً في جنته ولا خوفاً من ناره وإنما لصرف الحب الأصيل، وبعد هذا الحب لا يريد جزاءاً ولا شكوراً.

مثل هذا الانسان إذا عرضت له غفلة ما عن محبوبه عدّ ذلك ذنباً عظيماً، ولا ذنب أشد من ذنب البعد، حتى ليكون الانشغال بضروريات الحياة معدوداً عنده من الذنب الذي يلقى سدل البعد بقدره.

وعلى هذا المعنى تحمل الآيتان الأوليان من الآيات الثلاث الماضية.

وعليه أيضاً يحمل ما ورد في الأدعية المأثورة عن المعصومين عليهم السلام من الاعتراف بالذنوب والمعاصي وطلب التوبة والاستغفار منها، وهكذا الآيات التي تنسب الظلم إلى الأنبياء الكرام، صلوات الله عليهم أجمعين.

وأما قوله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ..} فإن عبارة الذنب إنما هي بلحاظ تصوّر الآخرين لذلك. فإن الآية تربط غفران هذا الذنب بهذا الفتح المبين وتجعله نتيجة له، وهذا لا يتمّ إلا إذا قلنا بأن الذنب هنا هو ما تصوّره الأعداء ذنباً.

ذلك أنّ النبي صلى الله عليه وآله واجه قبل الهجرة وبعدها بعاصفة من المعارضة والتشويش والاتّهام، بعد أن أعلن دعوته الحنيفية ورفض آلهتهم وسفّه أحلامهم، إلا أنّ معارضاتهم لم تنفع؛ لأن حجج الإسلام كانت أقوى من كل شيء، وكان الإسلام يخاطب الفطرة السليمة الوجدان الإنساني، فانتصر الفكر الإسلامي على أعدائه الذين لم يجدوا لعنادهم إشباعاً إلا أن يحاربوه بالضغط والسيف. فحمل السيف بدوره وجاهدهم وقتل صناديد الكفر والنفاق. وكان هذا هو ذنبه

الكبير في نظرهم. لذا كانوا يتربّصون به الداوئر، إلا أنّ الله تعالى أتى بنيانهم من القواعد فخرّ عليهم السقف من فوقهم، وأدار عليهم دائرة السوء بالفتح المبين، ففنيت شوكتهم وخمدت نار فتنتهم بعد أن أطفأها الله العزيز الجبار.

وبهذا يكون الله قد غفر ما ظنّوه ذنباً بمنحه هذا الفتح المبين.

وهذا نظير ما حكاه الله من قول الكليم عليه السلام: {وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ}[1] ولربما كان وصف جهاد النبي صلى الله عليه وآله الرائع بأنها ذنب هو نوع من أنواع المشاكلة البلاغية والمحسنات البديعية فيها.

وهذا الذي ذكرناه هو تفسير الإمام الرضا عليه السلام للآية حين سأله المأمون عن الذنب المذكور فيها رغم أنّ الأنبياء عليهم السلام معصومون، فقال عليه السلام: (لم يكن أحد عند مشركي مكة أعظم ذنباً من رسول الله صلى الله عليه وآله..) فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن!

(ومن الآيات) التي تمسكوا بها ما يظهر منه العتاب الذي يقصد به اللطف وتأكيد المدح، كقوله تعالى: {عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ}[2] الذي نزل بعد أن أذن صلى الله عليه وآله لبعض المنافقين الذين استأذنوه في عدم الخروج إلى الجهاد والذين لو خرجوا في المسلمين ما زادهم إلا خبالاً ولا وضعوا خلالهم يبغونهم الفتنة ولقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لرسول الله الأمور حتى ظهر أمر الله وهم كارهون. فإذنه صلى الله عليه وآله رحمة للعالمين. وكأنه تعالى يقول لرسوله: يا أيها الإنسان الرحيم العفو الستار، مازلت في كنف عفو الله، وتلك الملكة هي دعتك لئلا تكشف عن خبث سرائرهم، وذلك على شريطة القضايا التي قياساتها معها، وهذا من ألطف المدح.

(ومنها) قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[3] فإنه نزل بعد أن حرّم صلى الله عليه وآله على نفسه الخلوة بمارية، أو حرم شرب العسل ابتغاءاً لمرضاة أزواجه، وذلك بمقتضى ما آتاه الله من الرحمة الواسعة، فضحّى بطيب خاطره

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٤

(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٣.

(٣) سورة التحريم، الآية: ١.

لأجلهن ولهنائهن، وآثرهن على نفسه رغم العناء والمشقّة، فأشاد الله تعالى بهذا الايثار بشكل الاعتراض تأكيداً للمدح.

(ومنها) قوله تعالى: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ}[1].

ووجه نزول الآية واضح بملاحظتها، ذلك أنّ الله تعالى أراد محو تشريع جاهلي لتحريم نكاح زوج الدعي، وكان زيد بن حارثة دعي رسول الله صلى الله عليه وآله وقد زوّجه زينب بنت جحش، فأوحى اليه أنه سيأتيه زيد طالباً طلاق زوجته ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. فلما حضره زيد عازماً على طلاقها أمره الرسول صلى الله عليه وآله بإمساك زوجه وبتقوى الله تعالى، وهو يخفي في نفسه الشريفة ما أوحي اليه من مآل الأمر؛ خشية الناس إشفاقاً عليهم ورحمة بهم، كراهة أن يقعوا في الفتنة لا خشية على نفسه، لقوله تعالى: بعد آية {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ}[2] بنحو قصر الافراد وقطع الشركة الدال على مرجوحية خشية غير الله.

وعليه، فكلمة (أحق) الواردة في الآية ليست للتفضيل، وذلك كما في قوله تعالى: {وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ}[3] وإلا للزم تجويز تفضيله وكون خشيتهم لغير الله حقاً، وهو مناف للقصر المذكور في الآية.

وهكذا نجد أنّ هذه الآية كسابقتها هي في معرض بيان رأفة الرسول بالناس وحرصه على صلاح شأنهم، وكأنها جميعاً بمضمونها تشير إلى قوله تعالى: {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}[4].

(ومن الآيات) التي تمسّكوا بها ما نزل على اسلوب (إيّاك أعني واسمعي يا جارة) كما في الحديث المروي عن الصادق عليه السلام. وهو من مثل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ

(١) سورة الاحزاب، الآية: ٣٧

(٢) سورة الاحزاب، الآية: ٣٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ}[1] وقوله تعالى: {الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ}[2] وقوله تعالى: {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ}[3] وهذا الصنف كثير جداً.

وبهذا يتضح ما قلناه سابقاً من أنّ سقيم الذوق يجد حلاوة أعمالهم مرارة، لذا ينسب الشين إلى تلك الساحات المقدسة معبّراً عن جهله العميم.

(ومنها) بعض الآيات التي فسّرتها روايات دخيلة مدسوسة بتفسيرات تتنافى والعصمة، كالآية الكريمة {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ}[4].

وهذه الآية الكريمة تعبّر عن حقيقة هامّة في تاريخ العمل الرسالي، وأنه لابد وأن يواجه العقبات الكؤود في طريقه. فما أن يتمنّى الرسول والنبي أمنية في نجاح عمله التبليغي ويقدر انتصاره على أعدائه ونفوذه إلى قلب الأمة لهدايتها وارشادها حتى تبدأ الخطوات الشيطانية والوساوس الكافرة في تلغيم طريقه، إلا أنّ الله غالب على أمره، فينسخ ما يلقي الشيطان ويحكم آياته.

هذا ما يظهر من الآية الشريفة. أما بعض المفسرين والمؤرخين فقد نقلوا أخباراً واهية يذكر بعضها أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يتمنّى أن ينزل الله ما يرتضيه أعداؤه ليجلب بذلك قلوبهم، فلما شرع في تلاوة سورة النجم وتلا قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى}[5] أجرى الشيطان على لسانه (تلك الغرانيق العلى. وأن شفاعتهن لترتجى).

وهذا صريح في نسبة الكفر اليه صلى الله عليه وآله. وكيف يتمنّى ذلك الإنسان العظيم أن ينزل الله عليه كلاماً في مدح الأصنام؟!

---

(١) سورة الاحزاب، الآية: ١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٠.

(٣) سورة الانعام، الآية: ٥٢.

(٤) سورة الحج، الآية: ٥٢.

(٥) سورة النجم، الآية: ١٩، ٢٠.

وهذا ذيل الآية الكريمة يصرّح: {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ}[1].

وقد أنكر تلك الروايات الواهية محققو القوم ، مثل ابن حزم الأندلسي والقاضي عياض والقسطلاني وغيرهم وأبطلوها وأثبتوا وضعها.

والحمد لله رب العالمين.

(١) سورة النجم، الآية: ٢٣.

فهرس الكتاب

الخليفة ٤
المراد من الخلافة..... ٥
سر الخلافة الإلهية وملاكها ٥
وخلاصة الأمر ٦
الأسماء..... ٦
هل تختص الخلافة بآدم (ع)؟..... ٧
٢ـ آية الإمامة..... ٩
الابتلاء ٩
الكلمات ٩
الإمام ١٠
بماذا ابتلى ابراهيم (ع)؟ ١٠
إمامة إبراهيم(ع) ١١
متى تمّ منحه مقام الإمامة؟..... ١٢
ما يؤيد الاحتمال الثاني..... ١٣
آية أولي الأمر..... ١٨
منصبان للرسول(ص)..... ١٨
آيات تؤكد طاعة الرسول(ص) ١٩
طاعة أولي الأمر..... ٢٠
من هم أولو الأمر؟ ٢٣
هل المراد بهم أهل الحل والعقد؟..... ٢٤
ما يرجع به إلى أولي الأمر..... ٢٦
الروايات تعيّن أولي الأمر ٢٧
آية الولاية..... ٣٠
الولاية ٣٠
الركوع ٣١
الولاية في القرآن ٣١

انحصار الولاية ٣٤
مدى هذه الولاية ٣٥
من هم هؤلاء {الذين آمنوا}؟ ٣٦
شبهات حول هذا التفسير ٣٩
آية التبليغ ٤٥
نظرة في الآيات الكريمة ٤٥
١ـ رواية زيد بن أرقم: ٤٨
٢ـ رواية أبي سعيد الخدري ٥٠
٣ـ رواية ابن عباس: ٥٠
٤ـ رواية جابر بن عبد الله الانصاري: ٥١
٥ـ رواية البراء بن عازب: ٥١
٦ـ رواية أبي هريرة: ٥١
٧ـ رواية ابن مسعود: ٥٢
آية الاكمال ٥٤
متى كان هذا اليوم؟ ٥٤
الدليل على صحة هذا التفسير: ٥٦
الروايات من الفريقين: ٥٩
آية علم الكتاب ٦٢
موقف الكفار من النبي(ص) ٦٢
الشهادة الثانية وفضلها ٦٥
من هو هذا الذي عنده علم الكتاب؟ ٦٦
آية البينة ٦٨
معطيات الآية الكريمة ٧٠
الشاهد كما ورد في الأحاديث ٧٢
آية المباهلة ٧٦
دلالة الآية على فضل أهل البيت عليهم السلام ٧٨
توهّم باطل ٨٠
آية التطهير ٨٥

مفردات الآية الكريمة ٨٥
آية المودة ٩٢
أجر النبي(ص) ٩٢
بعض الأقاويل الضعيفة في تفسير هذه الآية ٩٤
آية الشهادة ٩٨
الشهادة ٩٩
الأمة الوسط ١٠٠
آية الاجتباء ١٠٨
الاجتباء والتسليم ١٠٩
آية رؤية الأعمال ١١٤
في نهاية المطاف ١١٨
نتائج البحث في الآيات الشريفة ١١٨
١ـ نتيجة البحث في آية الخلافة: ١١٨
٢ـ نتيجة البحث في آية الإمامة: ١١٨
٣ـ نتيجة البحث في آية أولي الأمر: ١١٩
٤ـ نتيجة البحث في آية الولاية: ١٢٠
٥ـ نتيجة البحث عن آية التبليغ: ١٢٠
٦ـ نتيجة البحث في آية الاكمال: ١٢١
٧ـ نتيجة البحث في آية علم الكتاب ١٢١
٨ـ نتيجة البحث في آية البينة: ١٢٢
٩ـ نتيجة البحث في آية المباهلة: ١٢٢
١٠ ـ نتيجة البحث في آية التطهير: ١٢٢
١١ـ نتيجة البحث في آية المودة: ١٢٣
١٢ ـ نتيجة البحث في آية الشهادة: ١٢٣
١٣ ـ نتيجة البحث في آية الاجتباء: ١٢٤
١٤ ـ نتيجة البحث في آية رؤية الاعمال: ١٢٤
مسك الختام ١٢٥
الأول: العلم بالغيب ١٢٥

الثاني: العصمة ١٣٠
فهرس الكتاب ١٣٨